السيرة النبوية فى الاستشراق الإيطالى

جوانب تاريخية ومنهجية

مع دراسة خاصة بـ

"دانتى، والمستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليرى"

دكتور

محمد على البطة(*)

مقدمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فليس من شك أن السيرة النبوية (سيرة سيدنا محمد ﷺ) تمثل عنصرا هاما فى الدراسات الاستشراقية، ولذلك أصبحت دراسة السيرة من الدراسات التى تحظى باهتمام متزايد فى العصر الحالى، فهى جزء من تاريخ الإسلام بل هى الرافد الرئيس، والمصدر الهام فى معرفة حياة الرسول ﷺ. إلا أن إشكالية دراسة السيرة فى الغرب تكمن فى عدم وجود رصيد علمى وموضوعى يمكن أن يشكل ملامح علمية وسمات محددة مستقلة وكافية لدراسة سيرة سيدنا محمد ﷺ، لاسيما من المنظور الغربى القديم، حيث إن مفهوم السيرة وملامحها وتاريخها قد تشكل وتحددت ملامحه قديما فى إطار من التعصب والكراهية الدينية، ذات الصبغة السياسية والعسكرية، حيث ركزت معظم الدراسة على أوهام من الفكر والتخمين ومخالفة الحقائق وللأسف لا تزال معظم الدراسات الاستشراقية الحالية فى الغرب تعتمد على التراث المزيف والخبرة الدينية الغربية القديمة والخاطئة فى الحصول على المعلومات والحقائق الخاصة بالسيرة

(*) كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنصورة - جامعة الأزهر الشريف.

النبوية الشريفة والتى شكلت فى النهاية الأساس لهذا العلم فى الوسط الأكاديمى الغربى، ولا تزال مثل هذه الدراسات أو بمعنى أصح (الكتابات) تشكل جانباً كبيراً من اهتمام المستشرقين فى مجال دراسة الإسلام عموماً وحياة الرسول ﷺ خصوصاً.

إلا أنه فى تاريخنا المعاصر تطورت الدراسات الخاصة بالسيرة النبوية عبر اتجاهين أو مسارين:

١ - **المسار الأول**: اهتم بمفهوم السيرة النبوية بشكل عام بدءاً من تحديد المصادر المعرفية واستغناء عن الكتابات الغربية القديمة (غير الموضوعية)، واعتماد مصادر أصيلة وصحيحة بحيث اتسعت لتشمل بجانب المصادر الغربية، المصادر الإسلامية أيضا، أى أضيف لمفهوم السيرة النبوية البعد الإسلامى الذى أضاف لمثل هذه الدراسات الاستشراقية مجالات أخرى للدراسة تضمنت قضايا دينية واجتماعية لم تكن تلقى اهتماماً فى الدراسات القديمة (الكلاسيكية). كما شمل هذا التجديد إسهامات استشراقية تتصف بالموضوعية وبالتالى فتحت مجالاً رحباً ومداخل جديدة شكلت إطاراً نظرياً وعلمياً (موضوعياً) لدراسة السيرة النبوية.

٢ - **أما المسار الثانى**: وهو القديم فيركز على دراسة السيرة النبوية بالتطبيق على بعض الدراسات والكتابات الغربية القديمة ذات الطبيعة الدينية، ومع اختلاف الموضوع والشكل فى دراسة السيرة يبرز دور التعصب والكراهية وعدم الإنصاف كبعد رئيسى ومحور هام فى دراسة السيرة باختلاف مداخل دراستها. ومن هذا المنطلق تستعرض هذه الدراسة الأطر التاريخية وبعض الجوانب المنهجية والاتجاهات البحثية فى دارسة السيرة النبوية الشريفة من المنظور الاستشراقى الإيطالى، وما يستتبعه ذلك من إثارة العديد من الإشكاليات التى ترتبط بطبيعة التناول الاستشراقى للسيرة النبوية، كما تحمل الدراسة نموذجين تحليليين يعبران عن

المسار الأول والثانى للتناول الإيطالى فى السيرة التى مثلت نقطة انطلاق معاصرة ومثيرة للجدل والنقاش فى المنتديات البحثية والأكاديمية، كما شكلت نقطة تحول فى المناهج الاستشراقية، كما طرحت الدراسة العديد من التساؤلات حول الموضوعية والتوازن ومعايير النزاهة والحياد، وكلها عوامل تؤثر على مصداقية الدراسات الاستشراقية فى دراسة السيرة النبوية الشريفة.

والله ولى التوفيق...

obeikandl.com

مقدمات منهجية ومعرفية

مقدمات منهجية أولية :

تستعرض هذه المقدمة بعض الملاحظات الأولية التى تستخدم غالباً فى الدراسات والبحوث العلمية التى تتناول موضوعاً ما ، وهى تندرج فى إطار علمى ومنهجى يهدف إلى إبراز بعض الملاحظات المنهجية وتتجلى أهمية هذه الملاحظات فى كونها تزيل اللبس وتحدد سياق المعالجة وتتمثل فى النقاط التالية :

١- إننا ، ونحن نناقش هذا المستشرق أو ذاك فى حقل السيرة النبوية ، يجب أن ننتبه إلى هاتين النقطتين مهما كان المستشرق ملتزما بقواعد البحث التاريخى وأصوله .

(أ) إنه من خلال رؤيته الخارجية ، وتغرّبه ، يمارس نوعا من التكسير والتجريح فى كيان السيرة ونسيجها ، فيصدم الحس الدينى ويرتطم بالبداهات الثابتة .. وهو من خلال منظوريه العقلى والوضعى يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة ويعاملها كما لو كانت حقلا ماديا للتجارب والاستنتاجات وإثبات القدرة على الجدل ..

(ب) وهو فى كلتا الحالتين لا يمكن أن يخدم الموقف الإسلامى الجاد من سيرة رسول الله ﷺ .. أو يحتل موقفا جادا منها بوجه من الوجوه .

لنحاول أن نقرب المسألة أكثر .. إن العمل المعمارى الكبير إذا أقيم على أسس خاطئة فإنه سيفقد شرطين من شروطه الأساسية : التأثير الجمالى الذى يمكنه من أداء وظيفته الوجدانية ، والمقومات العلمية التى تمكنه من أداء وظيفته الحيوية [١] ..

---

(١) د. عماد الدين خليل ، المستشرقون والسيرة النبوية ، بحث مقارن فى منهج المستشرق البريطانى المعاصر مونتغمرى وات ، مناهج المستشرقين ، جـ١ ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ، صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٢ - إن البحث فى (السيرة) بوجه خاص؛ ليستلزم أكثر من أية مسألة أخرى فى التاريخ البشرى هذين الشرطين اللذين يمكن أن يوفرهما منهج متماسك سليم يقوم على أسس علمية موضوعية لا يخضع لتحزب أو ميل أو هوى.. ويمتلك عناصر جماليته الخاصة التى تليق بمكانة الرسول ﷺ المتفردة، ودوره الهام فى إعادة صياغة العالم بما يرد إليه الوفاق المفقود مع نواميس الكون والحياة [٢].

٣ - وقد كانت مناهج البحث الغربى (الاستشراقى) فى السيرة تفتقر إلى أحد هذين الشرطين أو كليهما.. وكانت النتيجة أبحاثا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حياة الرسول ﷺ وتحلل حقائق الرسالة، ولكنها - يقينا - تحمل وجها وملامح وقسمات مستمدة من عجينة أخرى غير مادة السيرة، وروح أخرى غير روح النبوة.. ومواصفات أخرى غير مواصفات الرسالة [٣].

٤ - بما أن وقائع السيرة هى بمثابة التشكيل التاريخى والواقعى لعقيدة الإسلام قرآنا وسنة ورصيدا تشريعيا، وبما أنها البيئة الزمنية والمكانية لفاعلية سيدنا محمد ﷺ النبى المبعوث من الله سبحانه للعالم جميعا، فإنه يصعب من الوجهة الإسلامية اعتبارها مسألة تاريخية صرفة تخضع لأساليب النقد والتحليل التى تعامل بها مراحل التاريخ المختلفة، وللمناهج البشرية النسبية التى تحاول أن تجعل الواقعة التاريخية مسألة مختبرية، أو معملا للتشريح..

إن السيرة، إذا اعتبرت كذلك، قاد هذا الاعتبار إلى خطأين أساسيين: أما أولهما فهو استحالة فهمها ما دام أنها أكبر من المناهج النسبية وأكثر شمولا وما دامت تستعصى على أساليب النقد والتحليل المحدودة القاصرة.

(١) المرجع السابق، ص١١٧ .

(٢) نفسه، ص١١٧ .

(٣) نفسه، ص١٢٠ .

وأما ثانيهما فهو فتح الطريق أمام خصوم الإسلام لتدمير الثقة بمنطلقاته الأساسية، وأى منطلق، بعد القرآن الكريم، أكثر ثقلا وأكبر أهمية من السيرة: بيئة التخلق الإسلامى على كل المستويات، وتشكله واكتماله [١]؟

٥ - ولكن ما دام أن بحوث المستشرقين أمر واقع، وهى تغطى مساحات فى السيرة واسعة فى مجال البحث التاريخى، وتفرض ثقلها فى الدوائر الأكاديمية والتخصصية بعامة، وما دام أن فى بعض هذه البحوث لمحات منهجية وموضوعية قد تمنحنا المزيد من الإدراك لنسيج السيرة، وتعطينا المزيد من الأدوات المعينة على الفهم، فلا بأس أن نتعامل معها على هذا الأساس وليس أبدا على اعتبار أنها صيغة مقبولة للتعامل الدراسى مع سيرة رسولنا عليه الصلاة والسلام [٢].

٦ - ومن أجل ألا يختلط الأسود بالأبيض، وتمرر على العقل المسلم معطيات المستشرقين المنحرفة وأخطاؤهم المكشوفة، أو المستترة، كان لابد من تقديم العديد من الدراسات النقدية لهذه المعطيات، تكون بمثابة مصدر إنارة للمسلم فى هذا الدرب المعتم الطويل [٣].

وإذا ما توافرت المعرفة نحو هذه الملاحظات من حيث كونها تشكل بعداً معرفياً أمام الرصد التاريخى للسيرة النبوية فى الاستشراق الإيطالى لازماً لفهم تصورات المستشرقين وتحليلهم لمثل هذه القضايا، فإننا بذلك نستطيع أن نحصر الأخطاء والجوانب السلبية لمناهج المستشرقين فى دراسة السيرة النبوية الشريفة.

(١) نفسه، ص١٢١ .

(٢) نفسه، ص١٢١ .

(٣) نفسه، ص١٢٧ .

مدخل الدراسة

كطبيعة العمل البحثى فى تغطيته وعرضه للموضوع يلزم أن نمهد بمدخل دراسى يعد إثارة للموضوع وأرضية يتحرك منها البحث ويبصر النقطة التى يرتكز عليها.

لقد بدأ الموقف (الغربى) من رسول الله ﷺ يتشكل فى إطار دينى صرف، مترع بالتعصب والتشنج والانفعال. ملئ بالحقد والغضب والكراهية، تحيطه جهالة عمياء، متعمدة حينا وغير متعمدة أحيانا، جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا عليه الصلاة والسلام سدا يصعب اختراقه، والنتيجة ليست أبحاثا تاريخية علمية أو موضوعية بحال.. إنما ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة.. ومارسها رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة من قريب أو بعيد وقد استمر هذا التيار حتى العصر الراهن [1].

مع العلم أن الأوروبيين لم يعرفوا شيئاً أصيلاً عن سيدنا محمد ﷺ "حتى بعد انقضاء أكثر من ٤٠٠ عام على نبوته. فى عام ١١٤٢م وبعد زيارة بيتروس (بطرس) المعظم إلى إسبانيا التى كان يحتلها العرب عرفت أهمية تحصيل تصور أصيل عن الإسلام. ونتج عن ذلك أن أصدر أوامره بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية فجاءت أول ترجمة إلى اللاتينية فى سنة ١١٤٣م. ولكنه حتى بعد انقضاء ٥٠٠ عام لم توجد أية دراسة علمية أصيلة عن الإسلام إلى أن جاء ألكسندر روس (Alexander Ross) وكتب كتاباً هاماً فى تاريخ الأديان أسماه "عبادات مختلفة من جميع أنحاء العالم" سنة ١٦٥٠م وترجم إلى الألمانية سنة ١٦٦٨، وكان الرأى السائد فى الغرب عن الإسلام أنه عقيدة خاطئة وأنه تحريف متعمد للحقيقة وخليط من العنف والشهوة، وقيل عن

(١) التوحيد والنبوة والقرآن فى حوار المسيحية والإسلام، جوزيف فان إس، دراسة تحليلية نقدية، د/ السيد محمد الشاهد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص٢٧، ٢٨.

الرسول (محمد ﷺ) أنه المسيح الدجال وفى مقابل ذلك كان إظهار المسيحية على أنها هى الدين المثالى الوحيد الذى يحتوى الحقيقة المطلقة والسلام والحب والتعفف... الخ. وقد كان هدفهم من ذلك هو التشويه المتعمد لصورة الديانات الأخرى حتى يحموا أبناء دينهم من التأثر بالديانات الأخرى"[١].

يقول فان إس: الاهتمام بالإسلام قديم ولكنه لا يعتمد فى معلوماته على مصادر موثوق بها - ما يسمعه ويقرأه الإنسان من وسائل الإعلام عن الإسلام وما يقوله المثقفون عنه بصفة عامة هو شيء مخيف وهو مخيف لوجهين:

أولاً: بسبب الخطأ والأحكام المسبقة (الأحقاد) التى تظهر فى هذه الأحكام.

وثانياً: بسبب النغمة (الطريقة) الشبحية (الرهيبة) التى تُنقل بها. فبينما لا نجد إنساناً يخاف من البوذية أو الهندوسية نجد أن الخوف من الإسلام هو الموقف الطبيعى. وليس هذا بسبب أزمة البترول أو الثورة الإسلامية فى إيران، ولكنه كان نفس الموقف فى العصور الوسطى وفى بدايات العصر الحديث، حيث كان يزداد الاهتمام بالإسلام كلما وجد شيء مخيف (من الإسلام)، عندما فشلت الحروب الصليبية، وبعد ذلك أثناء الحملات التركية. فى مثل هذه الظروف تنتشر الصورة السيئة المتكررة وبدون تغيير.

الحاجة إلى معلومات (عن الإسلام) كانت تسد بسرعة عن طريق معلومات سطحية عامة يستنبط منها أحكام (نتائج) غير ناضجة (خاطئة)[٢].

وبالقدر ذاته وفى القرن العشرين، "توالت على المسرح أجيال من المعنيين بالدراسات الإسلامية عامة، وبسيرة رسولنا ﷺ خاصة، وقد عرف هؤلاء بالمستشرقين.. كان بعضهم ليس من الكنيسة ويرتدى ملابس الكهنوت، ولكن كان

(١) المرجع السابق، ص٢١، ٢٢.

(٢) نفسه، ص٩٤.

أغلبهم (مدنيا) ولا تربطه رابطة وظيفية.. وكان يتوقع أن تخف حملاتهم على رسولنا ﷺ وتتغير نظرتهم فى تعاملهم مع شخصيته وتاريخه وتعاليمه..

لكن لم يحدث شيء من هذا، ولكنه ما تعدى التشذيب والتهذيب وتجاوز كلمات الفحش، أما المنهج فقد ظل هو المنهج: جهلا بتركيب السيرة، وتعصبا فى التعامل معها وتحليلات واستنتاجات ما أنزل الله بها من سلطان، ويؤكدها الواحد منهم بقوة، ويجتمع القوم عليها حتى لتكاد تغدو عندهم يقينا من اليقينيات على الرغم من أنها بنيت أساسا على الوهم الذى تستحيل معه رؤية الحقائق، بحجمها الطبيعى وعلى الرغم من أنها انبثقت عن زاوية ضيقة مترعة بالتعصب، ونظر إليها قد دخن عليها سلفا، وعلى الرغم من أنها، فى أحسن الأحوال، قد بنيت على ثوابت حية ولكنها ليست -بحال - الشواهد المتواترة ذات الثقل، وإنما هى الشاذ منها يتشبثون به لكونه يشبع نفوسهم وعقولهم".

لذا يمكننا القول أن" المراحل التى مرّ بها الفكر المسيحى تجاه الديانات الأخرى، وخاصة الإسلام ونبيه ﷺ تنقسم إلى ثلاث مراحل:

أولاً - من مرحلة الجهل أو التجاهل، ثم إلى مرحلة التكبر، ثم إلى التسامح:

فيقول إنه حتى القرن السابع عشر الميلادى وبعد ترجمة القرآن الكريم فى ١١٤٣م بما يقرب من ٥٠٠ عام، كانت صورة الإسلام فى الغرب قاتمة وعدائية، إلى أن جاء ألكسندر روس Alexander Ross وكتب كتاباً باللاتينية عنوانه "عبادات فى كل العالم"، وحتى ذلك الحين كان النبى ﷺ لا يذكر إلا بالشتائم والافتراءات، كان الهدف من ذلك إظهار المسيحية فى صورة مثالية، فلم يكن الهدف من دراسة الإسلام هو معرفته على حقيقته، ولكن للافتراء عليه بهدف حماية المسيحيين من الخروج عن الكنيسة.

ولم يؤثر فى ذلك التيار الظالم ما كانت تحتله العلوم العربية من مكانة عالية، وخاصة الفلسفة والطبيعيات والطب والاقتصاد... الخ، ولم يكن من الممكن أن تنشأ مذهبية دينية مسيحية مثل التى جاء بها "توماس الأكوينى" دون معرفة مسبقة بالتراث العربى، ثم تلا ذلك مرحلة أخرى اختفى فيها تقدير التراث الإسلامى مع بداية عصر النهضة (١).

ومن الجدير بالذكر أن البابا قد أمر بإحراق ترجمة القرآن بعد صدورها مباشرة، عندما ازداد تهديد الأتراك للغرب وحصارهم لفيينا (١٥٢٩م)، وكان "مارتين لوثر" (مؤسس البروتستانت) قد شجع على ترجمة القرآن من العربية إلى اللاتينية، ولكنه ما كان يقصد بذلك سوى إظهار ما فيه من أخطاء - كما يدعى "مارتين لوثر" - والهجوم عليه. ولم تنجح بعض المحاولات التى قام بها بعض العلماء لدراسة القرآن دراسة تقترب من الموضوعية، فقد كانت تحرم مثل هذه الكتب، وتسحب من المكتبات، مثلما حدث مع كتاب "دين محمد" الذى ألفه "أدريان ريلاندز" (١٧٠٥م)، ولم يتغير ذلك الوضع إلا مع بداية عصر التنوير (٢).

وفضلا عن ذلك يذكر "هانس كونج" نماذج من كتابات غربية عن الإسلام، يظهر فيها احترام للعرب وللإسلام وللنبى ﷺ، مثل ديوان "جوته" Goetheالشاعر الألمانى بعنوان الديوان الغربى الشرقى (١٨١٩م)، وكتاب توماسكارليل Thomas Carlyle بعنوان: البطل "محمد" نبى صادق The Hero as Propthet (١٨٤٠م).

وقد جاء مع القرن التاسع عشر التقدم الكبير فى الاستشراق مع عصر الاستعمار الغربى، والذى صاحبه ظهور دراسة تاريخية نقدية للعلوم الإسلامية، وكان ذلك ممهدا

(١) نفسه، ص٩٤.

(٢) نفسه، ص٩٤.

لاختفاء النبرة المتعصبة تجاه الإسلام، وظهر معها فى القرنين ١٩، ٢٠ مؤلفات فيها تعاطف وإنصاف للإسلام [١].

إن العودة إلى الأسلوب القديم تجاه الإسلام كوسيلة لتحصين المسيحيين ضد الديانات الأخرى أصبحت مستحيلة؛ لأن هناك من الأسباب ما يمنع من السقوط فى أسلوب العصور الوسطى ومنها:

وجود الكتب العديدة الأقرب إلى الموضوعية، وكذلك وسائل الإعلام، وهذا العدد الهائل الذى يبلغ مئات الآلاف من المسلمين الذين يعيشون فى الغرب، هذه الأسباب جعلت الفهم الصحيح يحتل محل الاحتقار، والدراسة محل التعميم، والحوار بدلاً عن التنصير.

والواقع المؤسف لا يؤيد ما يذكره "هانس كونج"، فإن الإسلام لم يزل غريباً عن الغربيين، وليس الذنب فى ذلك إلا ذنبنا نحن المسلمين.

وينبه "هانس كونج" إلى أن الوقت قد حان لمحاولة معرفة الإسلام من داخله، واستكشاف الأسباب التى جعلت المسلم ينظر إلى الله والعالم وعبادة الله وخدمة الإنسان، وكذلك السياسة والقانون والفن نظرة تختلف عن نظرة الآخرين، ويحس بقلبه ما لا يحس به المسيحى [٢].

أسباب تشويه صورة الرسول ﷺ فى الغرب:

من المهم أن ندرك أن هناك أسباباً ودوافع لتشويه صورة الرسول ﷺ فى الغرب ومن الصواب أيضا أن نطرح هذه الأسباب والتى برأيى أنها ضرورية ولازمة للبحث.

(١) نفسه، ص٩٥، ٩٦.

(٢) نفسه، ص٩٦.

إن الناظر لأحوال المجتمعات الغربية يدرك أن هذا المجتمع يمكن أن يصنف إلى ثلاث فئات بالنسبة للموقف من الإسلام ونبيه:

(الفئة الأولى): لا تعلم عن الإسلام شيئاً وهؤلاء لا يمكن الحكم عليهم إيجاباً أو سلباً خاصة وبعض علماء الإسلام قد حكم بأن هذه الطائفة تعتبر أهل فترة. وأن أعباء عدم المعرفة إنما يقع على عاتق أمة الإسلام خاصة أولى الأمر من الحكام والعلماء.

(الفئة الثانية): وهم الأغلب وهؤلاء قد وصلت إليهم الصورة عن الإسلام مغلوطة وشائهة، حيث انطبعت لديهم صورة خاطئة عن سيدنا محمد ﷺ. فهو في نظرهم إرهابي ثوري دموي قاد مجموعة مسلحة كانوا يغيرون على مجاوريهم ولا يحركهم سوى الرغبة في الغنائم.

ثم هو دعي كذاب -كما يزعمون - اغتنم سذاجة أتباعه وادعى أنه رسول، وكان شهواني - حاشاه - لا يهمه سوى لذائذه الخاصة، وأما المسلمون من بعده فقد ساروا على دربه في هذا الشأن فهم يتوسعون شرقاً وغرباً طلباً للمال وحباً في الانتقام.

(والفئة الثالثة): وهم الأقلون عدداً فهم الذين يعرفون عن الإسلام الكثير بل قد يعلمون عنه ما لا يتوافر لأهله. وهؤلاء بدورهم قد انقسموا إلى قسمين:

- قسم صرَّح بحقائق الإسلام الكبرى وبث ذلك في كتبه ومدارساته ومجالسه.

وهذا القسم إما أن تتجه به حقائق الإسلام فيعتنقه ويصير جنداً من جنوده، وإما يظل على ديانته الأولى، إما لإلفه لها وإما لضغوط اجتماعية أو اقتصادية أو أسرية... إلخ.

- أما القسم الثاني فهم الذين عرفوا الحقائق وتبين لهم الرشد في حقائق الإسلام، والغي في أباطيل خصومه واستيقنت أنفسهم بأن الإسلام دين الله الحق. ومع ذلك جحدوا وغيروا وبدلوا وحاولوا إظهاره في صورة شائهة لا تمت إلى أصوله وفروعه من قريب أو بعيد. وأغلب هؤلاء من رجال الدين والساسة والمتعصبين من المستشرقين، واليهود الحاقدين.

ومن المعلوم أنُ من وصلتهم صورة مغلوطة عن الإسلام ونبى الإسلام هم الأكثر عددا على جميع المستويات حكاماً ومحكومين [1].

وفى هذا السياق فإن الصورة الحقيقية للإسلام غائبة عن جمهور الغرب ولا يظهر منها سوى المغلوط الذى لا يمت إلى الإسلام بصلة نظراً للعوامل التالية [2]:

١ - العناصر الغربية:

إن من أسباب معاداة الغرب للإسلام هو: أن الشرق يعتبر مجرد امتداد طبيعى للغرب، وتابعاً له ومسرحاً لسيطرته، وظل هذا الفهم قائماً حتى الآن من حيث إن الشرق الإسلامى والعربى هو المنطقة الوحيدة التى كانت تمثل تحدياً سافراً للغرب سواء فى المجالات السياسية أو الثقافية بل أيضاً فى المجال الاقتصادى.

ويضاف إلى ذلك أن الإسلام قد أفلح فى أن يزيح سلطان روما نفسها ويزلزله، بل إن الإسلام استطاع فى أقل من قرن أن يقلم أظفار الغرب ويزيحهم عن المنطقة العربية كلها، وهو أمر لا يمكن للغربى أن ينساه مما يحرك كثيراً من الآلام فى نفوس الغربيين. ولهذا رأينا منذ فجر التاريخ الإسلامى وحتى عهد الحرب على الإرهاب موجات من العدوان على الإسلام وأهله لم تهدأ هذه الموجات إلا فترات كان يتغلب فيها جانب التعقل تارة أو جانب التهيؤ والاستعداد تارة أخرى.

٢ - رجال الكنيسة المتعصبون:

ولا يخفى على أحد أن آباء الكنائس قاموا بدور مشبوه لتشويه صورة الإسلام ورسوله؛ وذلك منذ أن بدأ الغرب يتعرف على دين الإسلام فقد قام رجال الكنيسة

(١) الرسول الأعظم ﷺ، بين جهل المستهزئين به وهوان المنتمين له، د/ عبد العزيز المرشدى، ص١٢١، ١٢٢، ط خاصة بالمؤلف.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧.

وحتى يزهدوا الناس فى الدين الجديد ويوقفوا انتشاره بكل الوسائل حتى لو أدى بهم الأمر إلى وصم رسول الله بصفات هى أبعد ما تكون عن شخصية هذا النبى ﷺ.

فقد وصم آباء الكنائس الرسول ﷺ بأنه إما شيطان متمرد على الكنيسة، وإما شهواني كرّس كل حياته لإشباع رغباته، وإما زعيم عصابة كل هدفها السطو على أموال الأغنياء. وهكذا فقد أفلح هؤلاء فى أن يؤلبوا الساسة والعسكر ويحشدوا قواهم تحت ما يسمى بالحروب الصليبية والتى تولّى كبر هذه الحروب آباء الكنائس ورجال الدين المسيحى فى الغرب. مع ملاحظة أن فرقاً كبيراً بين نظرة نصارى الشرق للإسلام الذين كنا نسمع كثيراً منهم من رحبوا بالمسلمين (أبناء إسماعيل) الذين استنقذوهم من حكم الرومان الظالم. فرق كبير بين هؤلاء وبين نصارى ورجال الكنيسة الغربية الذين لم يألوا جهداً فى تشويه الصورة الحقيقية للإسلام ورسوله.

٣- الإعلام الغربى:

قام الإعلام الغربى بدور جبار فى تشويه صورة الإسلام ونبيه والمسلمين تدعمه فى ذلك اليد الصهيونية، والأصولية المسيحية التى يهمها تشويه صورة الإسلام والمسلمين بعدما رأوا ذلك المد الإسلامى المتنامى فى شتى أرجاء المعمورة ربما أفاد هذا المدخل فى طرح جانب هام يلزم الدراسة من أجل إيجاد استنارة فكرية وتاريخية نحو الجوانب التاريخية لسيرة النبى ﷺ فى الاستشراق الغربى عموماً والإيطالى خصوصاً ولكن التفصيل الدقيق لهذه الجوانب التاريخية يأتى فى المجال التالى.

الجوانب التاريخية لسيرة النبى ﷺ فى الاستشراق الإيطالى

لدراسة الجوانب التاريخية أهمية كبيرة وفوائد كثيرة فهى تمدنا بالرؤية الاستشراقية للسيرة النبوية فى سياقها التاريخى والتطورات التى صاحبت هذه الرؤية.

وبما أن "إيطاليا هى وريثة الثقافات العدائية التى ارتسمت فى العقلية المسيحية

منذ القرون الوسطى، وبصفتها حامية لمركز المسيحية الدينى فى أرضها، فهى دائما تحافظ على التاريخ التصادمى بكل ملابساته مع من يغايرها وضد من يناقض أهدافها، إن الفكر المسيحى بكل تراكمه التاريخى ظل يطبع الفلسفات الإيطالية طوال العصور الماضية.

فالكنيسة الإيطالية بما لها من نفوذ تراكمى تاريخى على روح الفاشية العسكرية النامية وتطلعاتها منذ بداية هذا القرن كانت ترى:

"أن قصارى جهدها أن تسدل الستار على إحساس الغرب وشعوره، فالكنيسة ترى أن المسيحى هو الإنسان الوحيد الذى يجب أن يتمتع بكامل حقوقه الإنسانية ذلك لأنه يمثل الصفوة وكان لزاما على المسيحى أن يرى فى اللامسيحى سواء كان هرطقياً أو مسلماً الشخص الوضيع الفاسق الذى يقف على هامش المجتمع الإنسانى ويجوز التنكيل به.." (١).

ولهذا تحاول إيطاليا لوجود السلطة الروحية "الفاتيكان" بها أن تمسك زمام المبادرة لنشر المسيحية على طول المنطقة.

لقد كانت إيطاليا تحاول دائما وبكل الطرق وخصوصاً فى إعلانها قبل الاحتلال نغمة التخلف الأساسى للعرب وقصور هذا العنصر العربى فى مجالات التقدم الحضارى.

كانت تحاول تشويه تاريخ البلاد مرتكزة على التاريخ الرومانى وأمجاد روما القديمة، فلم تدع وسيلة إلا استخدمتها فى سبيل إبراز التفوق الرومانى وإذلال العرب بعد الاحتلال ووصف العربى بأنه كاذب وكسول ومخادع، ومحاكم إيطاليا القضائية

(١) الاستشراق السياسى فى النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصرالمسلاتى، ص١٤٦، ١٤٧، ط١، ١٩٨٦، دار اقرأ، طرابلس - روما إيطاليا.

تزخر بمختلف القضايا التى كان ضحيتها دائماً الأبرياء الليبيون، كما أن الأناشيد التى كانت تُدرس للأطفال فى المدارس ذات صبغة تبشيرية استعمارية صليبية [١].

وجدير بالذكر أن التركيز على التاريخ الإسلامى الحديث وحوادث الماضى القريب شيء طبيعى، والنقص التدريجى فى العناية بالماضى الأبعد قرناً بعد قرن منتظر أيضاً، ولكن الاهتمام التاريخى القوى بفترة أصول الإسلام قد يكون ناتجاً فى رأيى عن عناية المجادلين الدينيين بهذا الموضوع، إذ هم قد اهتموا، بمناقشة الأمور المتعلقة بالرسول، لأهدافهم الدعائية. وعلى الرغم من أن هذه المناقشة لم تكن علمية، فإنها حددت مسائل معينة عديدة تحديداً باقياً بشأن سيرة الرسول ﷺ وتاريخ أوائل الإسلام. وجود هذا الحوار أثار محاولة الاستجابة إلى بعض هذه المسائل والتعمق فيها من قبل بعض المؤرخين. ونتيجة لذلك ازدادت وتفرعت كثيراً المؤلفات التاريخية عن الأصول الإسلامية، بينما أُهملت أبواب أخرى ضخمة من تاريخ الإسلام [٢].

وإزاء ذلك فإن ترجمة "كتون"، كان ظهورها خطوة إيجابية أولى لأنها أعطت الأوروبيين للمرة الأولى وسيلة لاكتشاف شيء من حقائق القرآن والإسلام بشكل أولى مباشر، وكان هذا تحسناً معنوياً مقارنة بالاعتماد السابق على الدعاية الخالصة والقيل والقال. ولكن يجب علينا أن نعترف بأن الموقف العقلى الأوروبى السائد من الإسلام ونبيه كان موقفاً عدائياً لقرون طويلة، وأنه كان جزءاً من الصراع العنيف بين الدول الأوروبية والدول الإسلامية فى الأندلس مثلاً وفى البلقان [٣].

لقد شجعت الاكتشافات مفكرى التنوير على معالجة القضايا الإنسانية

(١) المرجع السابق، ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) فرد دونر، اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام: قراءة نقدية، مجلة التسامح، العدد٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٣٨، تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

والاجتماعية أيضاً حُسب المذهب العقلى، لأن هذا المذهب وجد نجاحاً كبيراً فى العلوم الطبيعية. فمبادئ التنوير إذن فرضت الاعتماد على العقل المجرد فى كل نواحى الحياة والفكر؛ وأدى ذلك إلى رفض بعض عقائد الكنيسة التى لم تتسق مع الاكتشافات العلمية الجديدة، كما أدى إلى قيام حركة نقدية ضد الكنيسة والمؤسسات الدينية فى أوروبا وضد رجال الكنيسة ونفوذهم فى التعليم والسياسة. فى هذا السياق ظهرت الكتابات الغربية الأولى عن الإسلام وتاريخه يمكن أن نقول إنها كتابات علمية وليست دعائية، ومن أعظم نماذجها الكتاب المشهور (انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) بقلم المؤرخ غيبّون (GIBBON)، وهو كتاب يحتوى على عرض مطوّل لتاريخ فجر الإسلام كجزء من قصة تدهور البيزنطيين فى المشرق. والمهم هنا أن مثل هذا الكتاب حاول أن يُمثل مجرى التاريخ بشكل عام دون تحيز وعلى أساس مصادر تاريخية مناسبة. ومهد ذلك الميل العام فى كتابة التاريخ إلى ما نستطيع أن نسميه "الاقتراب الوصفى" من كتابة التاريخ الإسلامى فى الغرب - وهى المرحلة التى اعتمد فيها المؤرخون الغربيون لأول مرة على المصادر الإسلامية (العربية أو غيرها) ذاتها من أجل تفسير حوادث التاريخ الإسلامى. بل إن هذا الوضع - الذى أحدث رد فعل من جانب مفكرى التنوير ضد الكنيسة المسيحية وعقائدها - قاد بعض هؤلاء المفكرين إلى تأليف كتابات متعاطفة عن الإسلام والرسول، كما نرى مثلا فى كتاب (الأبطال والبطولة) بقلم كارلايل (CARLYLE) حيث صورة الرسول ﷺ هنالك إيجابية جداً [1].

ورغما عن ذلك، "فإن الجابهة الدينية - السياسية فى القرون الوسطى لم تكن ذات مظهر واحد، ولم تتسم بسمة شمولية للفئات الاجتماعية الأوروبية كافة. بل يمكن القول إن الموقف من دين المسلمين كان متناقضاً ومتبايناً من فئة اجتماعية إلى

(١) نفسه، ص ٢٣٩ .

أخرى. فمن جهة سيطرت حالة من (الفوبيا)، أى الخوف المرضى الدينى بالمعنى الحرفى للكلمة، إزاء التصورات الغربية عن الإسلام فى الوعى الشعبى، ومن جهة أخرى نجد ثمة فهماً واضحاً تماماً للدين المسيحى (وفق النمط الغربى) لدى النخبة الأوروبية المثقفة على خلفية ضرورة تبادل القيم الروحية والمادية مع الشعوب والديانات الأخرى. الأمر الذى يفرز - بكل تأكيد - احتراماً وتقديراً لمنجزات الحضارة الأخرى (المعادية) فى ميدان الثقافة والعلم على الأقل [١].

وتكمن إشكالية العلاقة بين العالمين فى أن "الإسلام من وجهة نظر المسيحية - الغربية يتسم بخلفية إشكالية لاهوتية عميقة. حيث ظهر فى أوائل القرن السابع للميلاد ووضع نفسه فى خندق مضاد متعارض تماماً مع التقاليد الدينية المذكورة (اليهودية - المسيحية)، وذلك من خلال تعميم مطلق غير محدود لهذا التوحيد، ألغى فى حقيقة الأمر أى إمكان لتجسيد الطبيعة الإلهية مع نفى تام لفكرة الثالوث المسيحية. وبذلك التوجه العقائدى حطم الإسلام النظام البنيوى - اللاهوتى، الذى كان مهيمناً فى التصورات المسيحية (لاسيما فى العصر الوسيط) حول التكوين الإلهى للتاريخ، وتجسيد الإله ذاته. ولهذا كان ظهور الإسلام بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية نوعاً من التحدى الدينى - التاريخى. ولكن أين يكمن المعنى التاريخى العام للإسلام، وما دوره الفعلى فى تنفيذ الإرادة الإلهية؟! حول هذه النقطة بالذات تمحورت التساؤلات والمناقشات والمناظرات المسيحية حول الإسلام [٢].

وبشكل عام، فإنه خلافاً للموقف الإسلامى الهادئ وحتى اللامبالى، كان موقف

(١) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليكسى جورافسكى، د. خلف محمد الجراد، ص٣٨، ٣٩، دار الفكر، دمشق، ط٢، ربيع الأول ١٤٢١هـ- حزيران (يونيو) ٢٠٠٠م.

(٢) A. Hourani. Europe and the Middle East. (London, 1980), P.9.
نقلاً عن الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم، ص٣٩، ٤٠.

المسيحيين الغربيين من الإسلام انفعالياً وغير متسامح روحياً. لأن الإسلام كان فى تصورهم (تحدياً) تطلب رداً ومقاومة واهتماماً دائماً به، وإنه من أجل إدارة الصراع بنجاح مع عقيدة هذا المنافس - الخصم، القوى والخطير، لابد من دراسته [1].

وقد ظهر الطراز الأول من الدراسات الإسلامية الكلاسيكية كخطاب غربى حول الإسلام بدءاً من القرون الوسطى. حتى إن (التخصص) فى الإسلام أو فى (الإسلاميات) أصبح جزءاً عضوياً من العلم، ومن الإيديولوجيا وثقافة المجتمع الأوروبى. (تاريخ الإسلاميات ليس عبارة عن تتال متوارث لمدارس واتجاهات، استدعت ظهورها بواعث اجتماعية خارجية.. الحديث يدور هنا حول عملية متصلة متحدة مع القوانين الأولية الداخلية لهذا التخصص) [2].

والحقيقة أن الإسلام لم يعط أوروبا معارف جديدة وحسب، بل أثر جوهرياً فى طبيعة نمو العمليات الثقافية وتطورها، وساعد فى كثير من الحالات على تشكل الوعى الذاتى الأوروبى. حتى مفهوم (أوروبا المسيحية)، بل قل التصور العام عن أوروبا كوحدة جغرافية وثقافية، تكون فى أذهان الأوروبيين فقط فى مسيرة (الاستعادة) و (التحرير) (Reconquista) والحروب الصليبية، حيث إن تلك التصورات الجغرافية - السياسية (الجيوسياسية) والثقافية ظهرت عندئذ ووضعت نفسها كنقيض مضاد للعالم الإسلامى. فللمرة الأولى تقريباً استخدمت كلمة أوروبا فى مماثلة ومطابقة مع كلمة مسيحية فى تلك الخطبة الحماسية التحريضية (التى سبقت الإشارة إليها)، التى أطلقها البابا أوربانس الثانى فى المجمع الكليريمونى (مجمع

(١) المرجع السابق، ص ٤١ .

(٢) م.أ. باتونسكى. تطور تصورات الفكر الاجتماعى لأوروبا الغربية فى القرون الوسطى حول الإسلام (القرن الحادى عشر - القرن الرابع عشر للميلاد)، فى مجلة (شعوب آسيا وإفريقية)، ١٩٧١، العدد٤، ص١٠٧ / بالرومية، نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٤٢ .

كليرمون) . وقد نوقشت مشكلة تأثير الإسلام فى تشكل الوعى الذاتى للأوروبيين فى دراسات كل من ك.دووسون وهَيْه Hay.D [١].

طبيعة الاقتباسات الثقافية عن سيدنا محمد ﷺ فى القرون الوسطى :

هناك نقاط تاريخية هامة وعديدة فى مناقشة موضوع "السيرة النبوية فى الاستشراق الإيطالى جوانب منهجية وتاريخية" ، حيث يوحى الموضوع المطروح للنقاش بأنه لا سبب إلى إنكار ضرورة اكتشاف صورة النبى ﷺ فى العصور الوسطى.

تعرض الدين الإسلامى الحنيف ، والرسول الكريم ﷺ ، فضلاً عن العرب الذين حملوا رسالة الإسلام شرقاً وغرباً ، إلى حملات شتى من التشويه والتضليل فى أوروبا ، منذ ظهور الإسلام وبداية المد العربى الآتى من الجزيرة العربية [٢].

لقد "كانت معلومات الأوروبيين عن العرب فى البداية ضئيلة جداً ، بل كانت مشوهة ومشوشة تماماً. حيث أثارت بعض دراساتهم الجغرافية - الوصفية إلى أعراب شبه الجزيرة العربية ، وكأنهم هم العرب فقط ، الذين (يقيمون حياتهم ومعيشتهم على النهب واللصوصية) [٣]. وظهور الدين الإسلامى كعقيدة توحيدية جديدة لم يُلحظ

(١) R.Lyer. le rideau de verse.- Table Ronde, 1965, No= 209, p.20.
The Cultural Context of Medieval learning Proceeding of International Colloquium on philosophy, Science and Theology in the Middle Ages. Sept. 1973 (Boston, 1975).
C. Geffre La Theologie des religions non chrestinnes, vingt ans après Vatican II (No=2). Islamochristiana. Vol. II (Roma, 1985).
نقلاً عن الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص٤٠-٤١.

(٢) المتغير الغربى، الشرق، الاستشراق، أدب الصحراء، محمد عبد الحسين الدعمى، ص ٢٧ ، ط١ ، ١٩٨٦ ، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد.

(٣) الوصف الكامل للأرض وشعوبها ، ترجمة س.ف. بولياكوف وى. ف. فيلينكوف- العصر البيزنطى، المجلد الثامن (موسكو ، ١٩٥٦) ، ص٢٧٩ / بالروسية، نقلاً عن الإسلام والمسيحية ص ٤ .

إلا بصعوبة فى أوروبا. إذ إن احتلال إسبانيا وصقلية من طرف العرب لفت الأنظار إليهم بشكل أوسع. ولكن ظهورهم على الأراضى الأوروبية نُظر إليه فى البدايات الأولى بوصفه كارثة، مماثلة - إن لم تكن أسوأ - للاجتياحات التترية للمراكز الحضارية والثقافية فى العالم، الأمر الذى استثار الفزع الشديد والقلق عند المسيحيين الأوروبيين. ومن ذلك أن ألفار أسقف قرطبة فى عام ٨٥٤م اشتكى من كون المسيحيين الشباب يأخذون من الآداب العربية، أكثر مما يأخذونه من اللاتينية، ويقرؤون الأشعار والحكايات العربية، ويدرسون مؤلفات الفلاسفة واللاهوتيين العرب، بينما يتجاهلون تماماً التعليقات والشروحات اللاتينية على الكتاب المقدس [١].

والكتاب، الذى يُؤلف فى الشرق الإسلامى، سرعان ما يصبح فى متناول العلماء والدارسين الغربيين بوساطة المترجمين العبرانيين. حيث ينتظره مئات القراء فى الأندلس، وفى إيطاليا، وفى باريس، وفى مدن إقليم بروفانس (بفرنسا الجنوبية). ففى باليرمو (بلرمو، بالرمو Palermo فى إيطاليا) فى بلاط فريدريك الثانى (من آل غوغينشتاوفين) عمل بصورة مشتركة، وتباحث وتجادل وتناظر مجموعة من العلماء المسيحيين والمسلمين واليهود. والواقع أن مؤسسة الترجمة التى قامت فى إسبانيا كثيراً ما دمجت ووحدت ممثلى هذه الديانات الثلاث [٢].

وتقتضى الموضوعية والأمانة العلمية الاعتراف بأن الترجمة التى جرت فى ذلك العصر من العربية إلى اللاتينية، وخصوصاً النصوص الدينية، التى استند إليها المسيحيون الأوروبيون فى مجادلاتهم ومناظراتهم مع المسلمين، كانت قليلة جداً.

ولذلك فقد ظل الجزء الأكبر من التراث الإسلامى (أحاديث الرسول والسنة

(١) أ. يو. كراتشكوفسكى. الثقافة العربية فى إسبانيا (موسكو، لينغراد، ١٩٣٧)، ص١١-١٢/ بالروسية، نقلاً عن الإسلام والمسيحية ص ٤٥.

(٢) الإسلام والمسيحية، ص ٤٧.

النبوية) مجهولاً بالنسبة للأوروبيين، مثل عدد كبير من المؤلفات الإسلامية في الشريعة والأحكام، وفي الميدان التاريخي أيضاً [١].

وفضلاً عن ذلك فقد "جرى نشاط فعال في مجال الترجمة بموازاة ما كان في طليطلة في الميدان نفسه في مدن كثيرة من شبه الجزيرة الإيبيرية. وبعد مدة ليست طويلة، أي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد انضمت صقلية إلى هذا الجهد، حيث تألفت هيئة أو مؤسسة للمترجمين في بالرمو (بلرما). فإليها (إلى بالرمو) قدم من طليطلة ميخائيل (ميكيل) سكوت، الذي اشتهر بترجمته أعمال أرسطو، وكذلك كمُنَجِّم رسمي في بلاط فريديريك الثاني، الذي كان بدوره مؤيداً لتوجهات الفلسفة الإسلامية. ومع الزمن نسجت حول اسم هذا المترجم المشتغل بالتنجيم وقضايا الفلك حكايات وقصص وأساطير كثيرة أضفت عليه قوة سحرية غير عادية [٢]. وربما كانت تلك الحكايات المضخمة هي التي حفزت دانتي لوضع ميخائيل سكوت مع من وضعهم في بطن الوادي الرابع من الحلقة الرابعة من جهنم [٣].

ويقول روجيه دي باسكييه: إن الغرب المسيحي أو الذي فقد مسيحيته لم يعرف الإسلام أبداً فمنذ أن ظهر على المسرح العالمي والمسيحيون لا يكفون عن اختلاق الأكاذيب حوله وتحقيره من أجل إيجاد المبررات اللازمة لقتاله.

يقول مونتجمري وات: لقد أدرك الناس من زمن أن الكتاب المسيحيين في العصور الوسطى خلقوا صورة للإسلام هي صورة شائهة من وجوه عديدة [٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨ .

(٢) مونتغمري وات، تأثير الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى، ص ٨٦، نقلاً عن الإسلام والمسيحية ص ٥١، ٥٢ .

(٣) انظر: دانتي. الكوميديا الإلهية، الجحيم، (الأنشودة العشرون: ١١٦-١١٧ / الطبعة الروسية) نقلاً عن الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص ٥٢ .

(٤) الرسول الأعظم، ص ١٢٥ .

القرن ١١، ١٢ الميلادي:

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد نشرت في أوروبا مجموعة من المؤلفات متعلقة بالسيرة الشخصية للنبي محمد. وضمن هذا السياق ظهر نوع من القصائد، تتضمن بصورة أو بأخرى شيئاً من حياة النبي محمد [١].

أما رئيس دير كلوني (الآباتي) بطرس المبجل أو المكرم Petrus Vernabiles (نحو ١٠٥٩-١١٥٦م)، الذي ترجم القرآن إلى اللاتينية، فيمكن من دون أي مبالغة تسميته مؤسس الدراسات الإسلاماتية لدى مسيحي القرون الوسطى. وقد انطلق من مسلمة حتمية الصراع مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجة. وفي نظرته للمسلمين كهراطقة، اعتقد بطرس المبجل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع، أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم. وحول نوايا بطرس المبجل هذا تشهد رسالته التي وجهها إلى العرب، ويقول فيها: (من بطرس الفرنسي الجنسية، المسيحي العقيدة، الآباتي في الخدمة الكنسية، من أولئك الناس، الذين يُطلق عليهم الرهبان.. إلى العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل، الذي يدعى محمداً [٢].

وإنه لمثار اهتمام، حقا، أن الوعي المتغير ورؤية الإسلام بدأ مع إعادة تمحيص اعتبارات ثيوبولوجية. وقد ظهرت كتيبات لاهوتية لدحض الإسلام مشتقة من اللاهوت الفلسفي أكثر من اعتمادها على الكتب المقدسة. فعلى سبيل المثال، أكمل انسلام (Anselm) مؤلفه Curdeus في ١٠٩٨، وأهداه وسلمه بيده إلى البابا اربن الثاني "Pope urban" في ذلك الصيف، بالقرب من ميدان معركة كابويا "Capua" وقد استوحى المؤلف كثيراً من مصادره من دحض الآراء المتعلقة بذات الله كتلك التي

(١) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص٧٢ - ٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٩.

اعتنقها الإسلام. ومما يخطر على البال للوهلة الأولى اسم بيتر المبجل Peter the Veneranble (١١٥٦) وكتابه Corpus cluniacense (ترجمات ١١٤١-١١٤٣) بما فيها الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن والتى ترجمها روبرت الأكيتونى "Robert Ketton" كما لا يغيب عن البال أيضاً توماس أكويناس "Thomas Aquinas" (١٢٢٥ - ١٢٧٤) وبحثه De rationibus fidei contra Saracenos Graecos et Armenos عام ١٢٧٠، وأيضاً "Summa contra gentiles" والذى لا تاريخ محدد له. ونحن نفكر أيضاً فى ريموند مارتى "Raimond Marti" (١٢٨٤) الذى كان يعرف العربية، وبحثه ضد أخطاء القرآن فى زعمه عام ١٢٦٠ ومؤلفه Pugio fidei adversus Mauros et Ludaeos الذى كتبه عام ١٢٧٨ ومؤلف روجر بيكون "Roger Bacon" (١٢٩٤) المعنون: Moralis philosophia وأيضا Opus tertium.

وإلى جانب مغزاها الدينى والاجتماعى - السياسى فإن العلاقات بين الغرب اللاتينى والعالم الإسلامى كانت مهمة جدا على المستوى الحضارى يقينا أن الغرب قد اقتبس معظم أساطيره وقصصه عن محمد والإسلام من البيزنطيين والمسيحيين العرب فى وقت الحملات الصليبية مضيفا إليها من خيالاته [١].

ومن الجدير بالذكر أن الإيطالى أ.أريفابن (A. Arrivabene) قام سنة ١٥٤٧ بترجمة معانى القرآن (اعتماداً على النسخة الكلونية) من اللاتينية إلى الإيطالية، وكانت هذه الترجمة مثل سابقاتها الهولندية والألمانية مستندة إلى النص اللاتينى لمعانى القرآن الذى ترجمه كتنتر [٢].

(١) الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى، د/ رشا حمود الصباح، عالم الفكر، العدد الثالث، ١٩٨٤، ص ٨٩.

(٢) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم، ص ٨٢.

وخلافاً لبطرس المبجل، فإن القديس توما الأكوينى عد المسلمين وثنيين وليسوا هراطقة مجدفين. ومن هذه الزاوية كان الأكوينى يرى أن المسلمين فى بعض الحالات أقل ارتكاباً للآثام والخطايا، قياساً للهراطقة المجدفين من البدع المسيحية (مثلاً، لأنهم لم يعترفوا بأهمية الإنجيل ومكانته الاستثنائية)، وفى حالات أخرى يعتقد الأكوينى أن المسلمين كانوا أكثر آثاماً وخطايا، من حيث إن مناقشاتهم مغلوطة فى المسائل والقضايا العقائدية الأكثر اتساعاً وشمولية [1].

وحقيقة الأمر فإن "مواقف توما الأكوينى تجاه ثقافة المسلمين وحضارتهم، كانت فى الغالب انتقائية، تماماً كما كان الأمر عند دانتى. فهو (أى الأكوينى) رغم اعترافه بالشهرة الفلسفية للعرب، يحتفظ بقناعة يقينية راسخة حول تهافتها من حيث المضمون اللاهوتى.

ولقد أولى توما الأكوينى محمداً ورسالته اهتماماً محدوداً جداً فى واحد من فصول كتابه (الرد على الخوارج) (خلاصة الرد على الأمم الخارجة عن المسيحية). لكنه لم يخرج كثيراً عن إطار القوالب الذهنية التى سادت فى الفكر الأوروبى فى عصره، إذ وضع الانتشار السلمى للمسيحية فى مقابل ما أسماه (بالانتشار الإكراهى) للإسلام. ويقوم تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على أطروحة مؤداها أن محمداً آمن بدعوته فى بادئ الأمر الناس الجهلة البدائيون فقط، أولئك الذين يعيشون فى الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أى تعليم أو عقيدة إلهية. وعن طريق هؤلاء البدو-الصعاليك أجبر محمد بقوة السيف بقية الناس فى المنطقة على الامتثال إلى شريعته. ويؤكد توما الأكوينى المزاعم القائلة: إن محمداً أغوى كثيراً من الشعوب للدخول فى عقيدته، من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات والشهوات الحسية، وعن طريق الوعود التى قطعها لها ضمن هذا التوجه الغريزى. ويتابع الأكوينى السير فى هذا المنحى

(١) المرجع السابق، ص ٨٣ .

المتحيز، مؤكداً أن محمداً أسس (قواعده) و(أحكامه) التشريعية، التي تتناسب مع قدرات وإمكانات العقل المتوسط وحسب. ثم يصل من كل هذه الأطروحات المتسرعة إلى القول: إنه لكي لا يكتشف أتباعه زيف شريعته، فإن محمداً منعهم من قراءة كتب العهدين القديم والجديد (خلاصة الرد على الخوارج)، ١، ٦) [١].

وبالمناسبة، فإن توما الأكويني لا يستخدم كلمة (القرآن) بتاتاً، وإنما يحل محلها عبارة (قوانين محمد).

وفي مؤلفه الصغير: (براهين الإيمان ضد المسلمين (الساراتيين كما يسميهم)، والإغريق، والأرمن) يقدم توما الأكويني النصائح اللازمة لأخيه في الرهبانيات الدومينيكانية، وللهيئة الكنسية في أنطاكية، حول كيفية الرد على أسئلة المسلمين وتفنيد حججهم [٢].

وفي هذا السياق يمكن القول بوجود "مؤلفين منفصلين عن الإسلام كتبهما في القرن الثالث عشر للميلاد غليوم الطرابلسي (مات بعد سنة ١٢١٧م)، وهما:

١ - (رسالة حول إمبراطورية أحفاد إسماعيل (العرب المسلمين) ونبيهم المزيف محمد).

٢ - (محمد وكتاب شريعة المسلمين).

ومع أن غليوم هذا يشوه بشدة صورة محمد وسيرته، التي يلونها بكثير من الحكايات الخرافية المتناسبة مع عصر المؤلف ووسطه (الثقافي - الإيديولوجي)، إلا أنه في الوقت ذاته يشير إلى ملامح وسمات عامة مشتركة بين الإسلام والمسيحية، حيث

(١) نفسه، ص ٨٣، ٨٤.

(٢) Islamochristiana Vol. 1-12 (Roma, 1975- 1986), Vol. 6. P. 266.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٨٤.

يعتقد أن عقيدة المسلمين قريبة من الإيمان المسيحى، وأنهما غير بعيدتين كثيراً سواء عن بعضهما، أو عن الطريق المستقيم الصحيح [١].

القرن ١٤، ١٥ الميلادى:

يلاحظ فى هذه الفترة أن ريموند لول استطاع "أن يقنع المجمع الكنسى سنة ١٣١١م بإصدار القانون رقم١١، الذى يقضى بتدريس اللغات الشرقية فى أربع جامعات أوروبية هى جامعات: باريس فى فرنسا، وأكسفورد فى إنكلترا، وبولونيا فى إيطاليا، وسلمنكا بإسبانيا. وقد تضمن هذا القانون إجراءات تنفيذية تنص على تخصيص كاثوليكيين لكل جامعة من هذه الجامعات الأربع، يقومان بتدريس اللغة العربية والكلدانية والعبرية واليونانية.

أما الراهب الدومينيكانى (المعاصر لريموند لول) ريكولدو دى مونتى كروتشيه (مات عام ١٣٢٠م)، فإنه ترك حقل التدريس، واتجه إلى التبشير المباشر فى الشرق. ثم عمم نتائج دراساته النظرية للإسلام، وخبراته الميدانية فى التبشير فى مؤلف أصدره تحت عنوان (ضد قانون الساراتيين) أو بعبارة أوضح (ضد شريعة المسلمين) [٢].

ومن النصف الثانى من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر استؤنفت أعمال الترجمة والعلاقات الثقافية بين إيطاليا والعرب، وإن كانت على نطاق غير واسع. ففى بولونيا وبادوا، حيث كان للرشدية تأثير مهم فى تطور الفلسفة الطبيعية، استؤنفت من جديد ترجمة المؤلفات والرسائل الطبية لابن سينا، والشروحات التى وضعها ابن رشد على أرسطو [٣]. وإلى تلك الفترة بالذات تعود أول

(١) R. W. Southern. Westren. Views of Islam in the Middle Age, P.62.
نقلاً عن الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص٨٤-٨٥ .

(٢) الإسلام والمسيحية، ص ٨٨ .

(٣) N. Rescher. The Impact of Arabic Philosopy on the West.- Studies in Arabic Philosophy. P.149.، نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٦٢ .

ترجمة لاتينية لقصة (حي بن يقظان) الفلسفية، التي وضعها ابن طفيل، وقام بتلك الترجمة (إلى اللاتينية) بيكو ديلاً ميراندولا [١].

ولكن في المجال المعرفي البحت، تنامى موقف اللامبالاة والتجاهل إزاء الفكر العربي الإسلامي. وبدأت أوروبا تتجه أكثر فأكثر نحو العلوم القديمة. والأصعب من ذلك أن الأوروبيين صاروا ينظرون إلى ترجمات العرب للمؤلفات اليونانية على أنها زائفة، وليس لها قيمة علمية حقيقية. بل إن صفة (عربي) ذاتها، حملت في هذا السياق نوعاً من المضمون التحقيري - الازدرائي [٢].

وفي هذا الإطار هناك عدة ملاحظات حول طبيعة التناول الغربي للسيرة النبوية في هذا العصر من أهمها:

١ - تعميق الكراهية ضد الإسلام ومحاولة توظيفها من الجانب الغربي والإيطالي طبقاً لتوجهاته وأهدافه السياسية.

٢ - المبالغة في التوصيف الغربي المستخدم للشخصية الإسلامية عموماً وشخصية الرسول ﷺ خصوصاً.

٣ - تدني مستوى المصداقية في طبيعة المعلومات المذكورة عن الإسلام عموماً والرسول ﷺ خصوصاً.

القرن ١٦: ٢٠:

وطوال هذه الأزمنة، لم يظهر اسم الرسول الكريم ﷺ في الكتابات الغربية إلا برفقة نعت واتهام ينم عن سوء الفهم الكامل للحضارة العربية - الإسلامية. وبعد

(١) The Legacy of Islam. Ed. By J. Schacht, C. E. Bostworth (Oxford, 1974), P.383.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٦٢.

(٢) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص٦٢ .

انتهاء حركة الإصلاح الدينى Reformation واستقرار إفرازاتها، كان على بعض رجال الكنيسة آنذاك أن يصبوا جام غضبهم على الربوبيين. فى (رسالة إلى الربوبيين)، حاول دين بريديوكس Dean Prideaux أن ينسب الكثير من الأباطيل للرسول ﷺ، وهذه الرسالة كانت إلى حدٍ بعيد تجسد الفكرة السائدة فى أوروبا عن الإسلام. وليس من المبالغة القول بأن درجة تشويه الشرق العربى- الإسلامى وصلت حداً أصبح فيه الإسلام "تهمة" استعملها البعض ضد خصومهم: فقد وصف أحد الأساقفة مفكراً يختلف معه بالآراء بأنه "مسيحى محمدى". (Watt, 249-50) يقول الباحث "واط" أنه بتقدم الزمن بدأت اللهجة المضادة للشرق العربى- الإسلامى تأخذ نبرة جديدة، نبرة تؤكد سوء الفهم واللغط ذاته، وهى: اعتبار الإسلام صورة ثانية، ولكن غير صحيحة، للمسيحية، وكان جون تولاند Toland من القائلين بهذا الرأى. ونتيجة دوافع معقدة ومتنوعة تكرس هذا الاتجاه وتم استخدامه بطرائق مختلفة: فقد قارن ألكساندر روس Rossبين "الورع والتفانى وأعمال الرحمة" التى يُظهرها المسلمون وبين ألـ"لا إكتراث بالدين، وارتخاء محاوراتنا" (مقتبس فى: Watt, 250) وذلك على سبيل حث واستثارة الإيمان الروحى فى بلاده. وعلى أساس من رفضهم للديانات على نحو عام ومناهضتهم للمسيحية على نحو خاص، نجح بعض الكتاب فى النظر إلى الإسلام على نحو مادى - دنيوى، أقل تعصباً، كما فعل بيير بايل Pierre Bayle فى مقالته "محمد" Mahomet ضمن كتاب (القاموس) ١٦٩٧م، وبرز الحال ذاته فى بعض المقاطع من كتاب (انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية) لإدوارد جبون Gibbon [١].

لا شك أنه "فى الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، جرت فى أوروبا عملية فكرية بطيئة، ضمن إطار دائرة ضيقة جداً من المختصين، فيما يتعلق

(١) المتغير الغربى، الشرق، الاستشراق، أدب الصحراء، محمد عبد الحسين الدعمى، ص ٣٨ .

بتراكم المعارف العلمية عن الشرق العربى والإسلام. مع أنه لابد من الإشارة هنا، إلى أن الاستعراب - فى تلك الفترة - لم يكن قد تبلور بعد فى حقل مستقل ومتميز فى مجموعة العلوم الإنسانية، حيث ظهر الاستعراب فى بادئ الأمر كفرع تطبيقى فى ميدان الدراسات الإنجيلية والتأريخ الكنسى. فى حين أن التخصصات فى قضايا دراسة الثقافة العربية بذاتها، لم تتضح معالمها وعناصرها العلمية الكافية.

ونشير فى هذا السياق إلى المبادرات الأكثر أهمية والأعمال الأشهر فى تلك المرحلة التاريخية، التى هيأت فى كثير من جوانبها التربة المناسبة للتقدم المطرد لعلم الاستشراق الأوروبى فى القرن التاسع عشر [١].

ومما يلفت النظر أنه "وفى الربع الأخير من القرن السابع عشر صنف ر.سيمون، الذى اشتهر بكتابه (التاريخ النقدى للعهد القديم) كتاب (التاريخ النقدى لعقيدة شعوب ليفانته وعاداتها). وفى عام ١٦٩٧ وبعد موت بارتيليمى دى - إربيلو، طُبع مؤلفه الشهير (المكتبة الشرقية)، الذى كان من حيث الجوهر والأهمية، أول موسوعة جدية عن الإسلام. وفى ما بين ١٦٩١-١٦٩٨ نشر لودوفيكو ماراتشى أول طبعة علمية للقرآن، مترجمة إلى اللاتينية، ومرفقة بتفسيرات وشروحات مستفيضة، وكذلك بآخر التفنيدات الموجهة ضد الإسلام [٢].

وفى هذا السياق وفى "مطلع القرن الثامن عشر ألف أستاذ اللغة العربية فى (كمبردج) س. أوكلى كتاب (تاريخ الساراتيين) (العرب المسلمين / خ.ج.)، وهو أول كتاب علمى ينشر فى إنكلترا عن تاريخ العرب. وفى سنة ١٧١٧ نُشر كتاب أ.ريلان (عن الديانة المحمدية)، أى عن تاريخ الإسلام، وقد لعب هذا العمل دوراً مهماً فى تغيير كثير من تصورات الأوروبيين حول هذه الديانة. وبعد مرور مدة غير

(١) الإسلام والمسيحية، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٩٤ .

طويلة، وبتأثير من الكتاب المشار إليه نشر الكونت دى بولينفلى مؤلفاً بعنوان (حياة محمد) (١).

فضلاً عن ذلك، عانت تلك المرحلة، سواء فى الأوساط الأكاديمية، أو فى الأوساط الكنسية، من هيمنة قوية للأنماط والقوالب الذهنية والتصورات القديمة المشوهة حول الإسلام، أما الجديد فى هذا الاتجاه فيتمثل فى تحميل تلك الأنماط والقوالب والتصورات (القديمة) شحنة إيديولوجية مغايرة تماماً (٢).

وفى مستهل القرن التاسع عشر "جاء التطور الكبير فى الاستشراق مع بداية عصر الاستعمار وظهر بذلك نقد تاريخى للعلوم الإسلامية وقد حد ظهور هذا الاتجاه العلمى فى القرنين ١٩، ٢٠ من مجادلات المسيحيين ضد الإسلام واتجه بهم إلى محاولة الدراسة والفهم الموضوعيين وقد حدث تطور واضح فى هذا الاتجاه. وقد ظهر العديد من الدراسات القيمة فى هذا المجال منها:

دراسات تاريخية نقدية تكرم النبى محمداً ﷺ منها: دراسات جوستاف فايل (G. Vaeil)، الويس شبرنجر (A. Sprenger)، وليام موير (W. Muir)، ليونيه قيطانى (L. Caetani)، تور أندريه (T. Avdrae)، ريشارد بليشير (R. Blacher)، منتجمرى واط (M. Watt) (٣).

وفى ٢٦ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٩ فجر أسين بلاثيوس قنبلة علمية كبرى، عندما قدم بحثًا استهلاليًا بمناسبة تعيينه عضواً فى الأكاديمية الملكية الإسبانية

(١) Y. Moubarac., Recherches sur la penses chretienne et L'Islam dans les temps modernes et a l'epoque contmporain (Beyrouth, 1977), PP. 103-105.

(٢) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص٩٤، ٩٥ .

(٣) التوحيد والنبوة والقرآن فى حوار المسيحية والإسلام، دراسة تحليلية نقدية، جوزيف فان. إس، د/ السيد محمد الشاهد، ص ٢٩ .

عنوانه : (الأخرويات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية) (ونشر فى مدريد فى العام نفسه - ١٩١٩م) . وقد أثار هذا البحث الضخم هزة كبيرة فى مختلف الأوساط العلمية فى العالم كله، نظراً لخطورة المشكلة التى أثارها وهى - تأثر دانتى بالتصورات الإسلامية للآخرة فى رائعته الخالدة : (الكوميديا الإلهية) . وجاء بنتيجة جهد علمى عظيم وبحوث مضنية دامت لأكثر من عشرين سنة متواصلة . (ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه المسألة كانت قد طرحت للمرة الأولى أمام المختصين بالدراسات الدانتية فى سنة ١٩٠١م من قبل الفرنسى المتخصص بالإيرانيات إ.بلوشيه فى بحثه : (المصادر الشرقية للكوميديا الإلهية) .

وفى سنة ١٩٤٩م استؤنف النقاش مجدداً حول هذه المسألة، حيث أصدر إنريكو تشيرولى، المستشرق الإيطالى وسفير بلاده فى طهران، كتاباً بعنوان (المعراج ومسألة المصادر العربية - الإسبانية للكوميديا الإلهية) . ولتدعيم رأيه فى هذا المجال ضمن تشيرولى كتابه هذا الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة لأحد نماذج المعراج الإسلامى، الذى قام بترجمته فى سنة ١٢٦٤م من العربية إلى القشتالية إبراهيم الحكيم الطبيب اليهودى. وبذلك أيد تشيرولى فكرة بلاثيوس فى احتمال نقل برونيتو لاتينى لدانتى معلومات تفصيلية من قصة الإسراء والمعراج [١] .

والواقع أن محاولات الكشف عن الصلة المباشرة بين إبداع دانتى والتراث الإسلامى، أسفرت عن نتائج متضاربة وقلقة للغاية . ولكن الجهد الذى جرى وانصب فى هذا الاتجاه ساعد على كشف أوجه وجوانب جديدة للعلاقات والصلات الفكرية المتنوعة والتناظرات القائمة بين هاتين الثقافتين الدينيتين [٢] . وفى الإصدار الأخير من

(١) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص ٦٠، ٦١ .

(٢) انظر : عرض المسألة فى مقالة ف. غابليرى دانتى والإسلام فى الثقافة والآداب العربية فى القرون الوسطى، موسكو، ١٩٧٨، ص ٢٠٣-٢٠٨ / بالروسية، نقلاً عن الإسلام والمسيحية ص ٦١ .

(قراءات دانتية) نوقشت مشكلة (دانتى والإسلام) فى دراسة الباحثة الطاجيكية م. شهيدى [1].

ومما يجدر ذكره أن "قضية الوضع الدينى لنبى الإسلام (محمد)، هى واحدة من الإشكاليات المعقدة فى الحوار المعاصر بين هاتين الديانتين. فاللاهوتيون الكاثوليك يعترفون بـ(الدور الإيجابى التاريخى لمحمد)، لكنهم لم يوفقوا بعد إلى عبارات إنشائية مناسبة لوصف المآثر المحمدية بصيغ لاهوتية-عقائدية مسيحية. ويحضرنا فى هذا السياق مثال المؤتمر الإسلامى - المسيحى الثانى، الذى عقد فى آذار ١٩٧٧م (فى قرطبة)، وكرس لمناقشة موضوع (تبجيل محمد وعيسى فى الإسلام والمسيحية)، والذى اشترك فيه أكثر من مئتى لاهوتى وعالم إسلاميات. ولكن مجموعة من الأقطار العربية رفضت إرسال مندوبين عنها إلى المؤتمر، محتجة بعدم جدوى أى حوار بين الديانتين، (ما دام أن الكنيسة لن تغير رسمياً موقفها من النبى محمد) [2].

إن نظرتنا إلى السيرة النبوية فى الاستشراق الإيطالى بمنظور تاريخى يكشف لنا عن خطورة المسألة وعمق تأثيرها وأهميتها فى تحريك دفة الاستشراق تجاه شخصية النبى ﷺ ودعوته بل إن ما دار بحثه يكشف لنا عن الجوانب السلبية الآتية:

١ - من وجهة النظر الغربية المسيحية فإن الإسلام يمثل لهم خلفية إشكالية لاهوتية عميقة.

٢ - لم يعرف الغربيون عموماً والإيطاليون خصوصاً شيئاً أصيلاً عن سيدنا محمد ﷺ حتى بعد مرور ١٠٠٠ عام على بعثته ﷺ.

---

(١) انظر: م. شهيدى: أبو على بن سينا نزيل اللمبو. قراءات دانتية لعام ١٩٨٥ (موسكو ص ١٠٥-١٧٤ / بالروسية) عن المسيحية والإسلام ص ٦١.

(٢) E. Aguilar. The Second International Muslim- Christian Congress of Cordobe.- Islamochristiana. Vol. 3. (Roma, 1977), PP. 207-209.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص١٤٢ - ١٤٣.

٣ - منذ ظهور الإسلام على الساحة العالمية فإن الكتاب المسيحيين خاصة فى العصور الوسطى رسموا صورة مشوهة لشخصية النبى ﷺ وحياته.

٤ - التصور النمطى المشوه عن الرسول ﷺ لم يتشكل بسبب ضعف فى المعرفة الأوروبية لهذا النبى بل نتيجة لمكونات ميثولوجية ولاهوتية.

٥ - يمثل العصر الوسيط رافداً أولياً مهماً من روافد تشكيل العقلية المسيحية تجاه صورة النبى ﷺ، وتتعاظم أهمية هذا العصر مع التعرض لمناقشة التناول الإيطالى لسيرة النبى ﷺ وصورته لدى دانتى على اعتبار أنه يمثل معلماً أدبياً واضحاً لدى الغرب عموماً فى هذا العصر والإيطاليين خصوصاً.

من هنا فإن واجب البحث والالتصاق بين عصرين أشد ما يكون البعد بينهما بين العصور الوسطى والعصر الحديث والمعاصر واخترنا لهذين العصرين نموذجين أشد ما يكون التباين بينهما والاختلاف فى الهدف والعقلية واضحاً.

فبينما يهاجم دانتى الرسول ﷺ بشدة تدافع فاغليرى وبعقلية واعية عن مجمل الاتهامات الغربية للرسول ﷺ وهذا ما دعانا لأخذ النموذجين حيث تكون الصورة مشوهة حسب النموذج الأول (دانتى)، فإن الصورة واقعية وإنسانية فى النموذج الثانى (فاغليرى)؛ لأن الصورة بينهما تظهر مختلفة تماماً، وهذا ما ستبديه لنا الدراسة.

الجوانب المنهجية لسيرة النبى فى الاستشراق الإيطالى

(دانتى - لورا فيشا فاغليرى) نموذجاً

انصب تحليلنا السابق من الدراسة على قراءة نقدية تاريخية نتيجة لطبيعة الاقتباسات (الأوروبية - الإيطالية) عن سيرة سيدنا محمد ﷺ وعلى إبراز الملامح التاريخية العامة لهذه الصورة.

وبما أن مدار البحث يلزمه فتح نوافذ (تطبيقية- منهجية) للاستشراق الإيطالى تؤدى إلى طرح وجهات نظر إيطالية مختلفة تجاه السيرة النبوية فإننا سنتعرض للجوانب المنهجية لسيرة النبى ﷺ فى الاستشراق الإيطالى عبر نموذجين.

الأول - دانتى:

على اعتبار أنه يمتلك نفس الرؤى والمعايير غير الموضوعية التى اتصف بها المجتمع الغربى وقتها (العصر الوسيط) عموماً والإيطالى خصوصاً.

الثانى - لورا فيشا فاغليرى:

على اعتبار أنها تمثل أهمية نسبية للخصائص العلمية والعوامل الموضوعية للاستشراق الإيطالى، وبامتلاكها لحجج ومعايير منطقية وفريدة طبقتها عندما ناقشت شخصية سيدنا محمد ﷺ وطبيعة دعوته.

١ - دانتى - تقدم أعمى ورؤية جاهل:

كيف تؤثر الكراهية؟

من المهم أن ندرك منذ البداية أن تحليل أفكار دانتى التى ظهرت فى العصور الوسطى ونقدها ليس غرضاً مقصوداً فى حد ذاته، وإنما هو وسيلة للكشف عن الخلفية الكامنة وراء أنماط التفكير الإيطالى المتأصلة بعمق فى العصور الوسطى والتى استمرت - وللأسف - تؤثر فى فكر كثير من المستشرقين.

ويقينا أن القدر اللازم للبحث هنا هو قياس منظور الخصائص العامة التى أقام على أساسها الإيطاليون نظرتهم تجاه سيرة سيدنا محمد ﷺ فى العصور الوسطى، وبرأيى فإن هذا المضمون يتوفر فى نموذج دانتى مما ترتب على ذلك أن نخصه بالبحث كنموذج للمنهج وبالتالى يساعدنا على فهم الأسباب الدينية والفكرية والميثولوجية التى اتصف بها هذا العصر.

إن "موقف مسيحية القرون الوسطى من الإسلام حددته محطتان رئيستان: أولاهما: ضرورة التعلم منه، كونه الأقوى والأعلم من جهة، وثانيتهما: التصارع معه كعقيدة غربية ومعادية من جهة أخرى. وإذا كان دانتى قد أفرد للفيلسوفين المسلمين ابن سينا وابن رشد مكاناً فى (اللمبو)، الذى جمع فيه كل الخيرين من غير المسيحيين فى (جحيمه)، فإنه وضع نبى الإسلام محمداً وابن عمه، الخليفة الراشد الرابع على ابن أبى طالب فى الخندق التاسع من الحلقة الثامنة (فى الجحيم) الدانتى)، الذى يضم مثيرى الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية، (الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار) (الجحيم، الأنشودة السابعة والعشرون ١٣٥ - ١٣٦، والأنشودة الثامنة والعشرون: ٢٢-٦٣). لقد ظهر محمد بعد المسيحية، فحمل بذلك إلى العالم انقساماً جديداً. أما على، ففى عهده انقسم الإسلام إلى ثلاثة أجنحة متعادية كبرى، ولهذا فهو المذنب -كما يعتقد دانتى - فى تقسيم الإسلام وشق صفوفه (ومن هنا يصوره دانتى بجذع مقطوع الرأس)[1].

تحليل لدوافع دانتى:

وإذا أردنا أن نعرف الدوافع الحقيقية لمثل هذه الكراهية تجاه سيدنا محمد ﷺ من قبل أدباء هذا العصر وخاصة دانتى فالحقيقة أنه "فى العصر الوسيط تحديداً، أى فى زمن

(١) الإسلام والمسيحية، ص ٦٥، ٦٦.

المبادلات الثقافية الأكثر فعالية، تشكلت فى الوعى المسيحى (الشعورى واللاشعورى) القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهى التى نشأت فى كثير من جوانبها بارتباط مسبق وارتهان شرطى بنوع وطبيعة الموقف التقليدى للكنيسة من الإسلام. وبشكل عام، فإن صورة الإسلام المتكونة آنذاك، وهى مزيج متناقض لمعارف موضوعية مع تشويهات خطيرة، ضمت فى الوقت ذاته تصورات فى منتهى الخيالية (الفانتازيا) والتوهم، حيث هيمنت بشكل ثابت، راسخ لمدة تاريخية طويلة على عقل الإنسان الأوروبى ومنطقه ومداركه تجاه الإسلام وحضارته (١). ولهذا يمكن القول: إن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين، لم تتكون وترتسم فى صفحة بيضاء خالية، وإنما انعكست فى مرآة قديمة مشوهة. إذ (إن سكان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام، التى كانت تتغير تدريجياً مظاهرها الخارجية فقط، تبعاً لتغير الظروف فى أوروبا ذاتها، وتبعاً لطبيعة علاقاتها ومواقفها المستجدة نسبياً مع البلدان الإسلامية وثقافاتها الحديثة) (٢).

فالتصور النمطى المشوه عن الإسلام، لم يتشكل بسبب ضعف معرفة الأوروبيين بهذا الدين وحسب. حيث يشير الدارسون (لتصورات القرون الوسطى عن الإسلام) إلى ثلاثة مكونات (عناصر بنيوية)، أسهمت فى تشكيل هذه القوالب النمطية، دون أن تتعارض فيما بينها، بل إنها تعايشت وتداخلت من التأثر والتأثير، وهى المكونات: الميثولوجية، واللاهوتية، والعقلانية. وعلى سبيل المثال فإن أدب أوروبا القرون الوسطى حول الإسلام وضع فى غالبيته العظمى من طرف رجال الدين المسيحيين،

(١) المرجع السابق، ص ٦٦، ٦٧.

(٢) N. Daniel. Islam. Europe and Empire, PP. 467- 468.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٦٧.

الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز والتباين، كالحكايات الشعبية، وقصص الأبطال والحجاج والقديسين، والمؤلفات الجدالية - اللاهوتية الدفاعية للمسيحيين الشرقيين، وشهادات بعض المسلمين، وترجمات مفكريهم وعلمائهم. ولكن كانت المعلومة المقدمة تنتزع في معظم الحالات من سياقها الأصلي، ثم تقدم إلى القارئ الأوروبي. وبهذا الشكل شوهت الوقائع بصورة متعمدة- واعية أحياناً، أو بشكل غير واع في أحيان أخرى. وفي إطار البحث الحماسي عن حل سريع (لمشكلة الإسلام) سيطرت في القرون الوسطى الموضوعات الدينية- الإيديولوجية [١].

لقد "عكس دانتي في "الكوميديا الإلهية" موقفاً تقييمياً إيجابياً للفلسفة الإسلامية وأعلامها وموقفاً عدائياً من الإسلام والنبي محمد ﷺ مكرساً صورة الدين المسيحي "الحق" معتبراً الإسلام "كفرا" وهرطقة وهو أول من قرن صورة القديس الإسيزي "المؤمن" الحقيقي وصورة السلطان المسلم "المتعجرف" والكافر، مثنيا فقط على السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث برزت صورته إيجابية في مجمل نظام الدولة الإسلامية وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي التي تمت في زمن شباب دانتي.

إن تأثير دانتي على نشوء الثقافة القومية الإيطالية وعلى منظومة الفكر الأوروبي للنهضة شمل أيضاً تأثيره على مجمل فناني عصره في علاقته بالإسلام ديناً وفلسفة. وتأثير دانتي والكوميديا الإلهية لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر. إذن تعتبر الكوميديا الإلهية إحدى المصادر الأساسية التي لجأ إليها الرومانسيون كمعين فني وإبداعي [٢].

---

(١) الإسلام والمسيحية، ص ٦٧ .

(٢) الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، د/ زينات بيطار، ص ٣٣، عالم المعرفة، العدد ١٥٧، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

وتتمحور الإشكالية "حول إيجاد سند دينى مسيحى للإسلام ونبيه. إذ إن المسيحية تعتقد أن الهدف من إرسال الأنبياء وعقائدهم منذ بدء الخليقة، ليس سوى تمهيد تدريجى لأجل بلوغ ذروة التاريخ الكونى، المتمثل بـ (التجسيد الإلهى) (فى شخص المسيح). فى حين أن محمداً، ظهر فى دعوته وعقيدته بعد ستة قرون من ذلك الحدث الإلهى، على أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن الله أنعم عليه بالوحى المؤيد لرسالته، ولكن من وجهة نظر المسيحيين، فإنه لم يكن بمستطاع محمد أن يكون نبياً حقيقياً، أما عقيدته فهى الأخرى لا يمكن أن تكون صحيحة. ولهذا رأى المسيحيون فى شخص محمد رجلاً مرتداً أو نبياً مزيفاً، لا يملك سوى الادعاءات والأضاليل، وفى تفسيراتهم الأقل تحفظاً صورة محمد كساحر، معاد للمسيح أو حتى إنه الشيطان ذاته. وصور الإسلام على أنه لون جديد من الهرطقة (اليهودية، أو المسيحية)، أو على أنه ضرب جديد من الوثنية [1].

تبدو أفكار دانتى عن الرسول ﷺ، كما أسلفنا، صورة للكراهية قوية وواضحة واتهاماً واستنكاراً إلى أقصى حد وقد يتساءل المرء: كيف يمكن لأديب متسق التفكير بصفة عامة، أن يصرح بمثل هذه الاتهامات وأن ينحط فى تفكيره لمثل هذه الدرجة؟ كيف يمكن للاتهام الذى يجعل فيه سيدنا محمد ﷺ بطبيعته شريراً بل أكثر شراً من غيره والعياذ بالله؟ وللإجابة على ذلك نقول: فى استطاعتنا أن نستخرج من أعمال إيطاليين آخرين وقتها صورةً مماثلة؛ فى عدائها للرسول ﷺ.

ودليلاً على ذلك فقد "هيمن على الإدراك (الوعى) الأوروبى فى القرون الوسطى الموقف السلبى الصريح تجاه الإسلام والرسول، مع أن الأطروحات والمؤلفات المصنفة ضمن هذا المنحى كانت قد تعممت عندئذ بأشكال وصيغ مختلفة ومتمايزة جداً. أما

(١) الإسلام والمسيحية، ص ٦٧، ٦٨.

أكبر كمية من المؤلفات فى تاريخ الإسلام، فقد وضعت عن نبيه محمد. فهذا - على سبيل المثال - راهب دومينيكانى (معاصر لدانتى) يزور بغداد، ويخرج على الأوروبيين بالحكاية الخرافية التالية: بما أنه لم تكن للشيطان قدرات ذاتية كافية لوقف انتشار المسيحية فى الشرق، اخترع (كتاباً)، يمثل حلقة وسطى بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشريرة (وسيطاً) من طبيعة الشيطان ذاته. أما (الكتاب) فهو القرآن، بينما (الوسيط) هو محمد، الذى يجسد دور المسيح الدجال (١).

ومن الأساطير التى نشرت عن النبى محمد (فى القرون الوسطى) تلك القائلة إنه ساحر كبير، استطاع عن طريق السحر والخداع تحطيم الكنيسة فى إفريقية وفى الشرق، وأنه سمح بالدعارة والفسق، لكسب مزيد من الأتباع (٢).

وبصفة عامة، كانت دعوى التحلل الجنسى للمسلمين (وصولاً إلى حد القول والزعم بأن القرآن نفسه يتساهل ويتسامح مع اللواطة) من أكثر القصص والموضوعات انتشاراً فى المؤلفات التى كتبها الأوروبيون عن الإسلام فى القرون الوسطى (٣).

ومن اللافت للنظر أن النبى محمداً ﷺ قد صُور "أحياناً وكأنه كان كاردينالاً للكنيسة الرومانية - الكاثوليكية. وكانوا يطلقون عليه اسم (ماهومت) أو (مومت) أو (موميتو)، الذى بعد أن قام بمحاولة فاشلة للجلوس على كرسى البابوية، هرب إلى شبه الجزيرة العربية، وبسبب تلك العقدة (عقدة الإحباط والفشل)، ومن أجل الثأر

---

(١) Ph. Hitti. Islam and the West., P. 50.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية ص ٧٢ .

(٢) R. W. Southern. Western Views of Islam in the Middle Age (Cambridge, 1962), PP.28-30.

نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٧٢ .

(٣) الإسلام والمسيحية، ص ٧٢ .

والانتقام أسس ديانته الجديدة [1]. وفى تآليف أخرى ألبسوا محمداً قوة ماردة جبارة، ذات منشأ جنى أو سحرى عظيم، أكسبته قدراته فائقة على خلق عجائب خيالية وهمية، فإنه على العكس من ذلك تماماً، حيث يتم التركيز على عدم قدرة محمد على تحقيق أى معجزة خارقة، الأمر الذى يرون فيه أحد البراهين الأساسية الحاسمة على ما أسموه بـ(زيفه) و (كذبه) و (ادعاءاته) [2] - كما يزعمون.

وبشكل عام، فقد تكونت فى وعى الأوروبيين (فى القرون الوسطى) ملامح اللوحة التالية عن الإسلام: إنه عقيدة ابتدعها محمد، وهى تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، إنها دين الجبر، والانحلال الأخلاقى، والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، إنها ديانة العنف والقسوة [3].

وانسجاماً مع الموقف المعادى، فقد رُسم الإسلام على هيئة نموذج قبيح سيئ يتعارض ويتناقض كلية مع النموذج المثالى للمسيحية بوصفها ديانة الحقيقة، التى تتميز بالأخلاق الصارمة وروح السلام، وبأنها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السلاح. وفى الوقت ذاته، وضمن هذا المنحى أيضاً نسبت إلى الإسلام بعض الرموز المسيحية التقليدية، ولكن بدلالات سلبية جديدة: مثلاً: صورة الحمامة كرمز للروح القدس فى المسيحية (إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث: (٢٢)، ألصقت بالإسلام فى القصص الأوروبية، محملة بمعنى رمزى مغاير للمعنى (المسيحى) الأصلى. حيث نشرت على نطاق واسع فى أوروبا الحكاية الأسطورية، القائلة: إن محمداً درب الحمامة لتنقر حبوب القمح من أذنه، وبذلك أقنع العرب، أن تلك الحمامة هى رسول الروح القدس، الذى كان يبلغه الوحى الإلهى. وعممت هذه الحكاية المختلقة إلى درجة أن

(١) L. Gardet. Islam. Religion et communaate (paris, 1979), P.408.
نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٧٣.

(٢) الإسلام والمسيحية، ص ٧٣.

(٣) مونتغمرى وات، تأثير الإسلام على أوروبا، ص ١٠٣، نقلاً عن الإسلام والمسيحية، ص ٧٣.

الشاعر الإنكليزى جون ليدهيت (القرن الخامس عشر)، الذى وضع سيرة لحياة محمد، سمى لون تلك الحمامة - (حليبياً أبيض). وردد هذه القصة المضحكة مؤرخون أوروبيون مثل وولتر رولى (المعاصر لشكسبير) مؤلف كتاب (التاريخ العالمى). بل إننا نقرأ عن شكسبير ذاته فى (هنرى الرابع، الفصل الأول، المشهد الثانى). كيف أن الملك كارل الثانى يتوجه إلى جان دارك صارخاً: (ألم تلهم الحمامة محمداً؟.. أما أنت فإن النسر، ربما ألهمك!) [١].

وفضلاً عن ذلك "تنمو دائرة التخيل الأوروبى فى هذا المجال، وصولاً إلى القول بأن الإسلام أخذ فكرة الثالوث المقدس المسيحية (الأقانيم الثلاثة)، ولكن ضمن توجه وثنى لا توحيدى. ويزعم مروجو هذه القصة بأن المسلمين يعبدون ثلاثة كائنات جنية خفية أو ثلاثة أصنام كبرى، هى: ماهومت (محمد)، وأبوللو ووتروفونيوس. وهذا ما جاء فى (أغنية رولان) أو (أغنية عن رولان) (الأبيات ٢٨٥٠ - ٢٥٩١)، حيث تتحدث عن المسلمين، الذى انهزموا على يد كارل، نتيجة لسخطهم وحقدهم وكفرهم.. ساحبين من الكهف أصنامهم، محطمين تمثالى أبوللو وتروفونيوس.

وللحقيقة يجب القول: إن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية لأن النبى (محمداً)، الذى حارب أكثر من أى مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذى حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول فى تصور المسيحيين (إلى صنم يؤلهه أتباعه)، الذين يطلقون عليهم ازدراء واحتقاراً لقب (عبيد سارة) أو (أبناء الجارية).

ويشير فى هذا السياق إلى أن هناك "حكاية مسيحية أخرى، حازت دعم أسقف قرطبة فى القرن التاسع الميلادى، مفادها أن أتباع محمد وصحابته انتظروا أن تقوم الملائكة برفع جسده بعد وفاته إلى السماء، ولكن بدلاً من ذلك حضرت فجأة مجموعة

(١) الإسلام والمسيحية، ص ٧٣، ٧٤.

من الكلاب وصارت تمزق هذا الجسد. وبهذه الحكاية المختلقة يُفسر تحريم لحم الخنزير بالنسبة للمسلمين، الذين يعتقدون أن الكلاب حيوانات نجسة أيضاً.

هذه التصورات المسيحية – الأوروبية المشوهة كانت لها فى بعض الأحيان نتائج طريفة ومضحكة للغاية. ففى اللغة الإنكليزية اشتقوا فى القرون الوسطى كلمة (mammet) من (maumet)، المأخوذة بدورها من (Mamomet)، والتى أصبحت فى بداية الأمر تدل على معنى (الصنم)، ثم تطورت دلالتها إلى معنى (دمية) و(صنيعة) أو (لعبة عرائس). وبهذا المعنى استخدمها شكسبير فى (روميو وجوليت، الفصل الثالث، المشهد الخامس)، حيث يقول:

And then to have a Wretched puling fool,

A whining mammet, in her fortunes tender,

To answer: ((I'LL not wed, I cannot love)).

ومعناها التقريبى:

وما بالك إذا كانت لديك حمقاء تعسة كالطفلة، مثل دمية باكية، وهى فى ظروف سعيدة وتجيبك: (لن أتزوج، أنا لا أستطيع أن أحب) [1].

فإذا كان (دانتى) فى روايته الكوميديا الإلهية قد أفرد لابن سينا وابن رشد مكانا فى ما يسمى (اللمبو) وهى ميناء جهنم، دخل إليها، وهى مقر عظماء العالم من غير المسيحيين، فإنه قد وضع الرسول محمد ﷺ وابن عمه الخليفة الراشد على بن أبى طالب فى الخندق التاسع من الحلقة الثامنة (فى الجحيم الدانتى) الذى يضم مثيرى الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية، على حد تعبير دانتى (الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار) [2].

(١) المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) الرسول الأعظم ﷺ بين جهل المستهزئين به وهوان المنتمين له، ص ٣١.

والمتأمل لهذه الرواية يدرك كما يقول مترجمها تأثر دانتى بما كان سائداً فى العصور الوسطى بين العامة والمؤلفات التى ألفها رجال الدين عن الإسلام ونبيه فقد تشكلت فى الوعى المسيحى القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهى التى نشأت فى كثير من جوانبها بارتباط مسبق بنوع وطبيعة الموقف التقليدى للكنيسة من الإسلام.

وبشكل عام فإن صورة الإسلام المتكونة آنذاك قد ضمنت تصورات فى منتهى الخيالية والتوهم [١].

هذا عدا هيافات وتفاهات عارية عن أى منهج علمى أو تحقيق تاريخى. لا يجمعها - مع تناقضها - سوى الحقد على هذه الشخصية ومحاولة تشويه متعمد لها [٢].

وهكذا فإن الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات مثل: الدين المحمدى، والمحمديون. ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأى الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل، وأنه ليس لله مكان فى تلك المعتقدات.

وفى الوثيقة التى صدرت عن سكرتارية الفاتيكان بعنوان (توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين) والتى اعترفت صراحة بأنه تجب مراجعة الطريقة التى تناولت الإسلام.

ولذا قالت (يجب مراجعة مواقفنا إزاء الإسلام، ونقد أحكامنا المسبقة. وعلينا أن نهتم أولاً بأن نغير تدريجياً من عقلية إخواننا المسيحيين فذلك يهم قبل كل شىء، ويجب التخلى عن الصورة البالية والتى ورثنا الماضى أياها أو شوهتها الفريات والأحكام المسبقة، كما يجب الاعتراف بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى فى حق المسلمين.

(١) المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٣٤.

وعلينا أن نتحرر من أكثر أحكامنا المسبقة خاصة، وهنا أيضا علينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا، نقول ذلك ونحن نفكر بالذات فى بعض الأحكام الجهزة التى كثيراً ما نصدرها باستخفاف عن الإسلام، ويبدو لنا هاماً وأساسياً أن نكف عن أن ننمى فى مكنون قلوبنا النظرات المتسرعة بل التحكمية تلك التى لا يتعرف فيها المسلم المخلص على نفسه) [1].

إن المشكلة بالنسبة لدانتى وغيره من الإيطاليين وقتها، فى أننا إذا ما حاولنا دراستهم معاً لوجدنا أن لديهم اتهامات كثيرة قالوها ودونوها. وأن مثل هذه الاتهامات إذا ما قدمت فى هذا البحث وتولينا الرد عليها، فإنه يحتاج إلى دراسات قائمة بذاتها وموسعة. ولكن المسألة هنا أن نستخدم اتهامات رجل مثل دانتى لسيدنا محمد ﷺ كمقياس نقيس به حقيقة هذا المجتمع ورؤيته تجاه السيرة النبوية الشريفة.

لقد اتسم أصحاب هذا الاتجاه فى دراسة السيرة النبوية بعدة سمات أهمها:

١ - الانحياز إلى الدين المسيحى ضد الرسول ﷺ على حساب الحقائق والمعلومات.

٢ - غياب الموضوعية فى مؤلفات هذا الاتجاه حتى فى عناوينهم الرئيسة للبحوث.

٣ - الافتقار إلى معايير علمية صحيحة لدراسة السيرة النبوية.

٤ - غلبة الإطار الدينى والأيديولوجى على كتاباتهم.

٢ - لورا فيشا فاغليرى - تقويم صحيح ومعايير منطقية:

تناول العديد من المستشرقين سيرة النبى ﷺ من عدة جوانب، وزوايا.

وعلى ضوء ذلك نرى أن هؤلاء المستشرقين قد ساروا فى بحوثهم من اتجاهين:

١ - الاتجاه العقدى.

(١) نفسه، ص ٩٣ - ١٠٣.

٢ - والاتجاه العلمي الذى انبرى فيه (عدد من المستشرقين الطليان ليقفوا جهودهم على فهم الإسلام ودراسته دراسة معاصرة بعيدة عن النقد أمام التيار الدينى الإيطالى المعادى الذى لا يتورع فى إظهار أحقاده وضغائنه الدفينة ضد المسلمين.... فكان أن برز مستشرقون أمثال كارلونالينو CARLO NALLINO وليونى كايتانى LEONE CAETANI ولاورا فاليرى LAURA VAGLIERI فى كتابه "دفاع عن الإسلام" APOLOGIA DELL ISLAMISMO.

أما كتاب كايتانى فهو "حوليات الإسلام" ANNALI DELL ISLAM وكذلك ظهرت كتابات فى دائرة المعارف الإيطالية ومؤسسة الدراسات الشرقية ومقرها مدينة نابولى ISTITUTA ORIENTALE وكانت تنشر مجلة تسمى مجلة المشرق الحديث ORIENTE MODERNO وغيرها [١].

ومهما اختلفت دوافعهم للعمل بميدان الاستشراق، وإن ظهر أثناء دراساتهم أوجه نظر متباينة، ورؤى مختلفة فى دراسة السيرة النبوية الشريفة.

ومن الاتجاهات العملية، والآثار الإيجابية للاستشراق فى السيرة النبوية ما قامت به المستشرقة الإيطالية لورا فيشا فاغليرى من تحقيق علمى سديد، يعد دليلاً على صدق بحوثها وموضوعية دراستها الأمر الذى جعله بحق مرآة صافية تعكس حياة صادقة لسيدنا محمد ﷺ من وجهة نظر غربية عموماً وإيطالية خصوصاً.

وقد حاولت لورا فيشا فاغليرى إيضاح الصورة الإنسانية فى شخصية سيدنا محمد ﷺ من خلال العرض المجمل فى كتابها الموسوم بـ (Apologia dell Islamismo) وقد قام بنشره أ.ف. فورميجينى؛ فى رومة، ايطالية، عام ١٩٢٥ .

أى "دفاع عن الإسلام"، أما الترجمات الإنكليزية فنشرت تحت عنوان:

(١) الاستشراق السياسى فى النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتى، ص ٢٢٠ .

An Interpretation of Islam أى "تفسير الإسلام"[1]. الذى مثل دوراً هاماً فى الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ.

واللافت للنظر هنا ليس التوجهات العامة للكتاب ولكن العنوان نفسه الذى يعبر عن معرفة جيدة ودفاعات جريئة تفتحت معها عقلية واعدة استوعبت الفكر الاستشراقى استيعاباً عميقاً واستوعبت التراث الإسلامى والعربى استيعاباً صحيحاً.

غير أن الباحث هنا لا يستطيع مطالعة الكتاب مطالعة شاملة وتفصيلية، ولكن المؤكد والمستطاع هنا ما أولته المستشرقة الإيطالية لبعض جوانب شخصية النبى ﷺ، عبر قراءة صحيحة لسيرته الشريفة.

ولعل طرق هذه الجوانب لشخصية سيدنا محمد ﷺ وإعادة قراءة سيرته من خلال هذا الكتاب تمثل استقراءً سريعاً لنتاج المستشرقة وأفكارها التى أودعتها مؤلفاتها القيمة فى الإسلاميات.

ملامح شخصية النبى ﷺ حسب رؤية لورا فيشا فاغليرى:

لما كنا نهدف من بحثنا الاطلاع على السيرة النبوية وملامح شخصية الرسول ﷺ فى الاستشراق الإيطالى عبر المراحل التاريخية الرئيسة ومن خلال اختيار نماذج محل للبحث والدراسة مثل فاغليرى فيمكن تصوير ملامح شخصية النبى ﷺ حسب رؤيتها كما يلى:

١ - لم يكن النبى محمد ﷺ عدوانيا:

إن علينا، بادئ ذى بدء، أن ننظر فى تهمة "روح الإسلام العدوانية" هذه. فإذا كانوا يقصدون بها أن محمداً، على خلاف مؤسسى الأديان الأخرى، قد امتشق حاسمه ونظم حملات عسكرية متطلعاً إلى نجاحات وفتوح إضافية بعيدة، وأن أتباعه حذوا فى

(١) دفاع عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليرى، نقله إلى العربية منير البعلبكى، ص ٦، ط٤ آذار مارس، ١٩٧٩، دار العلم للملايين، بيروت.

ذلك حذوه فعندئذ يتعين علينا أن نقول : إن هذا صحيح - حسب قول فاغليرى ؛ ولكن يتعين علينا أيضاً أن نبحث ، بالعقل المنفتح نفسه ، عن السبب الذى قضى بهذا . أما إذا زعموا أن الحرب التدميرية كانت هى السبيل الضرورية لفرض العقيدة وأن الحاجة إلى الفتوح كانت جزءاً أساسياً من طبيعة الدين الإسلامى نفسها فعندئذ يتعين علينا أن نرفض الاتهام ، وإن فى استطاعتنا أن نقيم الدليل ، استناداً إلى القرآن وسنن النبى نفسه ، على أن ذلك بهتان كامل .

كان من دأب الرسول ، بوصفه نبياً موحى إليه ، أن يخاطب المكيين ويحدثهم عن رؤاه السماوية التى طلب إليه أن يصبر على الأذى والتى أثارت سخط قريش . حتى إذا اتخذ القرار العسير بالهجرة إلى المدينة ، وبذلك أصبح محور صراع سياسى ، كان عليه أن يختار بين الموت على نحو مُذل ، وهو أمر لا يتفق مع رغبات الله ، وبين القتال لإنقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك . كان الصراع يدور بين الفوضوية ، ومادية الوثنيين المتبربرين ، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين على الرغم من تحضرهم البعيد ، من ناحية ، وبين مثل أعلى رفيع فى التجدد الدينى والاجتماعى ، من ناحية ثانية .

ذلك كان المثل الأعلى الذى أراد محمد أن يحققه بأى ثمن ، فقاتل قتال الرجل الوديع ضد الغطرسة والطغيان ، أو قل قتال الرجل الذى لا يرغب فى الحرب ولكنه مُكرَه على منازلة أولئك الذين أصروا على تدميره بالقوة . وإنما نهض بهذه المهمة وأنصاره قلة قليلة ، ولكنه نهض بها واثقاً من أنه كان يمهد السبيل لإيصال الحقيقة إلى كثير من النفوس ، ومن أنه كان مكلفاً بأن يهدى الناس سواء السبيل فى غمرة الظلام . وكان لدى وصوله إلى المدينة قد مد يد الصداقة ، أول ما مدها ، إلى اليهود الذين مثّلوا فى هذه المدينة جماعة غنية مزدهرة . لقد دعاهم إلى التعاون الصادق فى وحدة سياسية واجتماعية .

ولكنه حين أُدرك أنهم معادون له عداء مطلقاً وأنهم مصرون على إتباع سبيل خاطئة غادرة تعيِّن عليه أن يقاتلهم ويعاقبهم. كانت الحرب ضد الأعداء الخارجين ضرورة من ضرورات العصر. فلم يكن فى ميسور أيما عربى من الصحراء أن يكيف نفسه لحالة من السلم الدائم بعد أن تعود طوال قرون بكاملها أن يخوض غمار الحرب كعمل سوى. وهكذا، ما إن سوى محمد النزاعات الداخلية حتى اضطر إلى مواجهة عدوان قريش وتلك القبائل التى لم توقع معه أيما معاهدة. ولكن الحرب بمخاطرها وانتصاراتها العسكرية ساعدة على جعل الجماعة الجديدة كالبنيان المرصوص. لقد قدمت وسيلة البقاء الضرورية للرفاق الذين هاجروا مع الرسول من مكة إلى المدينة. لقد أرضت ميول البدو الطبيعية؛ وفى محيط متبربر جعلته الأخطار والجسارة والمغامرات جذاباً، مثلت واسطة لصيانة الحياة وتيسير تحقيق رسالة النبى. لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الجديد وتعظيمه، لا غاية فى ذات نفسها. كانت دفاعاً ضرورياً، لا عدواناً جائراً [1].

٢ - النبى المتسامح:

وكان محمد المتمسك دائماً بهذه المبادئ الإلهية، شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يُتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور. لقد اكتفى من البدو بما نستطيع أن ندعوه دخولاً رسمياً خالصاً فى الدين لأنه عرف أن أبناء الصحراء هؤلاء لا يطيقون، بالفطرة، أيما صدّ أو كبح مهما يكن. لقد عرف جيداً أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشرى.

لقد قال ذات يوم لأحد صحابته: "لماذا تريد أن تكره الناس على الإيمان، والإيمان لا يمكن أن يأتى إلا من عند الله؟" ويوم نزلت الآيات التى تعالج موضوع

(١) المرجع السابق، ص ٢٩-٣١.

التسامح، لم يكن الرسول رجلاً حالماً تتبعه مجموعة صغيرة من الحالمين مثله، ولم يكن فيلسوفاً مشلولاً بوعيه لعدد متباين من القوى، ولكنه كان رجلاً فى أوج قوته، رجلاً يرأس دولة رفيعة التنظيم، ويقود جنوداً صالحين مطيعين كان فى ميسوره أن يستخدمهم ضد أى امرئ يقع اختياره عليه.

إن تاريخ السنوات الأولى من الإسلام يقدم إلينا عدداً من الأمثلة على التسامح الدينى الذى أظهره الخلفاء الأولون نحو أتباع الديانات الموحدة. فكما أعطى الرسول نفسه ضمانات إلى نصارى نجران بأن مؤسساتهم المسيحية سوف تصان، وأصدر أمره إلى قائد إحدى الحملات العسكرية إلى اليمن بأن لا يؤذى أيما يهودى فى يهوديته، فكذلك وجه الخلفاء إلى قادتهم العسكريين تعليمات مماثلة حول مسلك جيوشهم فى الحرب. ولقد حذا هؤلاء القادة المظفرون حذو محمد فى عقد الاتفاقات مع الشعوب المغلوبة. وبفضل هذه الاتفاقات منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة، وتقاليدها القديمة [١].

٣ - الصادق الأمين :

وحاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبى الله ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين، فى بعض آيات القرآن اللاسعة، بنار الجحيم الأبدية لو كان هو قبل ذلك رجلاً كذاباً؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثاً موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو

(١) نفسه، ص ٣٣ - ٣٤.

يائساً؟ كيف وُفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، فى مكة، فى نجاح قليل جداً وفى أحزان لا تُحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا فى الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالى إلى مجتمع مؤلف فى كثرته من الأرقاء، والعُتَقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا فى كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا فى حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الاجتماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً [1].

٤ - عدله ورحمته ﷺ:

أما تهمة القسوة فالرد عليها يسير. إن محمداً، بوصفه رئيساً لدولة، والمدافع عن حياة شعبه وحريته، قد عاقب باسم العدالة بعض الأفراد المتهمين بجرائم معينة عقاباً قاسياً، وإن مسلكه هذا ينبغى أن يُنظر إليه على ضوء عصره، وعلى ضوء المجتمع الجافى المتبربر الذى عاش فيه. أما محمد، بوصفه المبشر بدين الله، فكان لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه الشخصيين. لقد امتزجت فى ذات نفسه العدالة والرحمة، وهما اثنتان من أنبل الصفات التى يستطيع العقل البشرى تصورها. وليس من العسير تأييد هذا بكثير من الأمثلة المنثورة فى سيرته. قال أحد الذين ترجموا له: "لقد جعل الحرب - تلك الضرورة الرهيبة فى الحياة الإنسانية - أقل وحشيةً." وقال آخر إن الرسول كان من دأبه أن يوصى جنوده بقوله: "ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة" [2].

٥ - تهمة الشبق الجنسى ودفاع لورا فيشا:

سننظر فى تهمة الشبق، وسنُظهر أى مبلغ من النبل والرفعة انطوى عليه عملُ

(١) نفسه، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) نفسه، ص ٣٨، ٣٩.

هذا المصلح الذى استطاع فى سنوات قليلة أن يحول شعباً وثنياً متبربراً إلى جماعة موحدة تعمرُ صدرها أسمى العواطف والحوافز الأخلاقية. ولسوف تدحض الوقائع وجهة نظر أولئك الذين لا يرون فى الكثرة الكاثرة من أتباع محمد غير مضاربين وأنانيين ولصوص جشعين انضموا إليه بدافع من رغبتهم فى الغنيمة والفتح. ولو أننا أردنا تعداد الشواهد التى تُثبت حمية كثرة أتباعه الرائعة، ورأفتهم التى لا حد لها، وغيرَتهم المتّقدة إذن لاحتجنا إلى صفحات كثيرات. فحسبنا أن نقول: إن هناك أنواعاً من الصراع لا يمكن الفوز فيها ما لم يكن ثمة عامل أخلاقى بالغ القوة، إيمان دائم بعدالة القضية، ولقد كان الإسلام يملك هذا العامل [1].

لقد أصر أعداء الإسلام على تصوير محمد شخصاً شهوانياً ورجلاً مستهتراً، محاولين أن يجدوا فى زواجه المتعدد شخصية ضعيفة غير متناغمة مع رسالته. إنهم يرفضون أن يأخذوا بعين الاعتبار هذه الحقيقة: وهى أنه طوال سنى الشباب التى تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش فى مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقوداً أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحدة ليس غير، هى خديجة، التى كانت سنها أعلى من سنه بكثير، وأنه ظل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب. ولم يتزوج مرة ثانية، وأكثر من مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زواج من زواجاته هذه سبب اجتماعى أو سياسى، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتى تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء شق طريق جديد لانتشار الإسلام. وباستثناء عائشة، ليس غير، تزوج محمد من نسوة لم يكن عذارى، ولا شابات، ولا جميلات. فهل كان ذلك شهوانية؟

(١) نفسه، ص ٣٩.

لقد كان رجلاً لا إلهاً. وقد تكون الرغبة فى الولد هى التى دفعته أيضاً إلى الزواج من جديد؛ لأن الأولاد الذين أنجبتهم خديجة له كانوا لسوء الطالع قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائماً، على الرغم من عدد زوجاته الكبير، سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعاً، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفارق مع أى منهن. لقد تصرف متأسياً بسنة الأنبياء القدامى، مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحداً من الناس يعترض على زواجهم المتعدد. فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية، على حين نعرف كل شيء عن حياة محمد العائلية [1]؟

٦ - طبيعة دعوته وأساس رسالته ﷺ:

ولقد دعا الرسول العربى، بصوت مُلهم باتصال عميق بربه - دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين إلى أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزاعات البشر المرجعية التى تقود المرء إلى أن يُشرك بالخالق آلهة أخرى.

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ «الإخلاص».

ولم يلجأ الرسول، لكى يقود الناس إلى الإيمان بإله واحد، إلى استهوائهم بروايات عن أحداث تنحرف عن سبيل الطبيعة السوى - تلك الأحداث التى تدعى معجزات. ولم يُكرههم على التزام السكينة باصطناع التهديدات السماوية التى لا تؤدى إلا إلى تعطيل قدرة الإنسان على التفكير. بل لقد دعاهم ببساطة، ومن غير أن يكلفهم الابتعاد عن عالم الحقيقة، إلى التفكير فى الكون وسُننه. وإذ كان واثقاً من أن

(١) نفسه، ص ٩٩ - ١٠١.

كل عاقل لابد أن يؤمن آخر الأمر بالإله الواحد الواجب الوجود، فقد اكتفى بدعوة الناس إلى أن يقرأوا كتاب الحياة. وينص كل من محمد عبده وأمير على على أن محمداً كان يكتفى بمخاطبة ضمير الفرد ذاته، وعقل الإنسان الحدسى [١].

وعلى الرغم من أن محمداً دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب من مثل كتابه، أو على الأقل بسورة من مثل سُوره: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ «البقرة»، وعلى الرغم من أن أصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا غير قلائل فى بلاد العرب فإن أحداً لم يتمكن من أن يأتى بأى أثر يضاهى القرآن. لقد قاتلوا النبى بالأسلحة، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السمو القرآنى [٢].

إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذى أدى إلى ذلك الانتشار كونُ الكتاب الذى قدمه المسلمون إلى الشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان فى ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين فى هذه الأرض.

وبالإضافة إلى العقيدتين الأساسيتين اللتين أشرنا إليهما آنفاً - وحدانية الله ورسالة محمد - فإن جميع العقائد الأخرى التى يؤمن بها المسلمون والمقبولة لدى الجماعة الإسلامية بعد قرون من الدراسة والمناقشة ليس من طبيعتها بأية حال من الأحوال أن تعوق العلم الحديث أو تعارض الحقائق الفلسفية [٣].

إن اتجاه لورا فيشا فاغليرى المشيد بالإسلام ونبيه ﷺ استند أصحابه فى موقفهم الوسطى إلى النقاط التالية:

(١) دفاع عن الإسلام، ص٤٣ - ٤٤ .

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ٥٩ - ٦٠ .

١ - نجاح هذا الاتجاه فى الظهور بمستوى علمى وموضوعى مقبول إلى حد ما.

٢ - الصدق فى نقل المعلومة وتحليل أحداث السيرة النبوية.

٣ - عدم كثافة التركيز على المصادر الغربية وحدها.

ونصل فى ختام هذه المبحث الفرعى المتعلق بآثار الاستشراق الإيطالى فى السيرة النبوية الشريفة إلى القول بأن لورا فيشا فاغليرى رغم خلفيتها الدينية والاجتماعية الغربية إلا أنها قد قامت بدور إيجابى فى توضيح صورة النبى ﷺ للغرب.

وهذا الدور يعد أثراً علمياً ومؤلفاً موضوعياً يعتبر إعادة لصياغة علمية واستشراقية نزيهة لسيرة النبى ﷺ.

obeikandl.com

ملاحظات ختامية

١ - إن الكتاب الغربيين يجنحون في معظم الأحيان إلى تصديق أسوأ ما يقال عن محمد، وحيثما كان التفسير السيئ لعمل من أعماله تفسيراً مقبولاً في الظاهر اعتبروه كذلك في الواقع. ولذلك يجب علينا ألا نكتفي بنسبة محمد إلى الأمانة واستقامة الغاية إذا كنا نريد ولو قليلاً من فهمه.

"وإذا كنا نريد تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي فينبغي أن نستمسك عند كل قضية بالاعتقاد بإخلاصه حتى يتبين لنا العكس بحجة قاطعة. وينبغي أن نتذكر أن الحجة القاطعة مطلب أصرم من الحجة التي تبدو في الظاهر معقولة، وأنها لا تنال في مثل هذه الأحوال إلا بعسر"[1].

٢ - إننا في مجال التشكيك والنفي الاعتباطي لابد أن نتذكر العبارة التي قالها (مونتغمري وات) بهذا الصدد، "إذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد فيجب علينا في كل حال من الحالات التي لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه، ويجب ألا ننسى أيضا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه".

٣ - لم أجد سبيلا يدعو بعض المستشرقين أو المبشرين إلى القول المغاير للحقيقة والعلم، حين قالوا بأن فترة طفولة النبي ﷺ، وفترة شبابه حتى نبوته "حياة النبي الأولى" لا نعرف عنها شيئاً، فكيف أجازوا لأنفسهم أن يقولوا ذلك، وهم يعلمون كما يعلم كل إنسان أتيح له شيء من الثقافة والدراسة التاريخية أنه لم تعرف ترجمة لحياة إنسان في التاريخ، كما عرفت ترجمة حياة محمد بن عبد الله، نبي الإسلام ﷺ، فلم يكن من أسرة مغمورة أو مجهولة، فهو حفيد سيد قريش

(١) منهج مونتغمري وات في دراسة نبوة محمد ﷺ، د/ جعفر شيخ إدريس، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج١، ص ٢١٠.

وعظيمها عبد المطلب، وهو من تحدثت عنه مكة ويثرب، لما أحاط ولادته من ظروف قاسية، حيث توفى أبوه عبد الله فى دار الغربة، فى يثرب، تاركا ابنه لم تلده أمه آمنة بعد، وما أعقب ذلك من حياته فى حجر جده عبد المطلب، ومتابعة أخباره وهو فى رعاية عمه أبى طالب، وما رافق ذلك من مشاركته فى أحداث مكة، إلى تجارته إلى الشام بمال خديجة بنت خويلد، ثم زواجه منها، وقد أصبح ذلك حديث مكة، كما كان موقفه من خلاف بطون قريش حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانه فى الكعبة حديث مكة أيضا، فهل يقال بعد ذلك إن هذه الفترة من حياته ﷺ كانت مجهولة، "ولسنا نملك بينة موثوقا بها عن حياة النبى الأولى".

يقول هندى مسلم: "إن سيرته ﷺ معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، ولاسيما الفترة التى أدى فيها الرسالة، ولست أغالى إذا قلت: إننى أعرفه أكثر مما أعرف أبوى، ثم أليس من العجيب، أننا لا نجد فيما أثر عنه - على كثرته - إلا كل ما يدعو إلى الاحترام والإعجاب؟! غيره من الأنبياء مضروب عليه حجاب من الغموض، ولا نعرف من حياتهم اليومية إلا القليل"[1].

٤ - لذلك أعتقد أننا حالياً على مشارف حقبة ازدهار عجيب فى دراسات الإسلام وتاريخه، أو ربما تخطينا هذه العتبة. ولسوء الحظ ما يزال الموقف العدائى من الإسلام موجوداً بين بعض الناس فى الغرب لأسباب دينية أو عن جهل وخوف. ولكنى متأكد من أن الازدهار فى الدراسات العلمية عن التاريخ الإسلامى سيتغلب فى النهاية على الخوف والجهل وقد يقودنا - مسلمى الشرق وغير مسلمى الغرب - إلى مستقبل خيرٍ مشترك[2].

(١) أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د/ شوقى أبو خليل، ص٤٧ -٤٩، ط٢، ١٤٢٨هـ-١٩٩٩م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس - ليبا.

(٢) اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام: قراءة نقدية، فرد دونر، ص٢٣٦-٢٤٤.

تقويم عام للكتابات الإيطالية فى دراستها للسيرة النبوية الشريفة

١ - كشف التحليل عن قدر كبير من المبالغة بالنسبة للموضوعية.

٢ - تعتبر الموضوعية أحد أهم المعايير المنصفة التى كان على الغرب أن يتبناها فى دراسته وفى الاستشراق الإيطالى خصوصاً كانت الموضوعية مفهوماً غائباً لأسباب كثيرة منها: ما هو دينى وسياسى وثقافى.

٣ - ثمة ملاحظة أخيرة فى تقييم هذه المؤلفات وهى إخفاق الكتابات الإيطالية فى أن تكون مرآة للحقيقة لدى القارئ الغربى نظراً لما ذكر سابقاً.

فخلاصة الأمر أن الاستشراق عموماً والإيطالى خصوصاً لم ينقل للغرب حقائق السيرة وبدت أحداثها مبالغ فيها ومجزأة وغير صادقة نظراً للتحليلات الموجهة. وبذلك لم ينجح الاستشراق فى تكوين صورة صادقة وحقيقية تجاه شخصية سيدنا محمد ﷺ وهو الأمر الذى يتطلب جهداً علمياً دؤباً ومعلومات صحيحة ونقاش هادف يعتمد على الصدق والموضوعية والنزاهة.

نتائج البحث

ما ننتهى إليه من هذه الدراسة :

١ - النتيجة المهمة جداً بالنسبة لأغراض هذا البحث هى أن الكتابات الإيطالية عن السيرة النبوية تحتاج إلى دراسات قائمة بذاتها ، بسبب سمتين يختص بهما النمط الإيطالى :

السمة الأولى : أن إيطاليا وعلى مر التاريخ تعتبر نفسها حامية المسيحية وحاضنة الدين.

السمة الثانية : من الملاحظ أن معظم المستشرقين الإيطاليين كانوا أقل إنصافاً من معظم المستشرقين الغربيين الآخرين إلى النظر نحو الإسلام عموماً ، والرسول ﷺ خصوصاً وهذا يعنى أن معظم المستشرقين الإيطاليين وليس جميعهم اتهموا الرسول ﷺ أكثر مما تقبلوا منه.

٢ - إن دارسى دانتى الذين عبروا عن عظيم إعجابهم لنتاجه الأدبى فى الكوميديا الإلهية وللأسف منهم العرب والمسلمون يبدو أنهم عالجوا الموضوع بطريقة تنطوى على مفارقة علمية ودينية واضحة عندما أهملوا ، أو تجاهلوا رؤية دانتى تجاه الرسول ﷺ والإمام على كرم الله وجهه ، ولو أنهم درسوا وضع النبى ﷺ فى وضع الكوميديا الإلهية لفعلوا خيراً ولكن ما فعلوا إلى قليلا.

٣ - كشفت الدراسة عن قدر كبير من الإنصاف والموضوعية والصدق فى نقل المعلومة ، وتحليل أحداث السيرة النبوية ، وذلك من خلال دراسة لورا فيشا فاغليرى.

٤ - يجب على الغرب عموماً والإيطاليين خصوصاً مراجعة مواقفهم إزاء الإسلام ، ونقد أحكامهم المسبقة تجاه النبى ﷺ.

وختاماً نسأل الله الهداية والتوفيق والنجاح وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الطاهر الزكى وعلى آله وصحبه وسلم.

مراجع البحث

- اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام: قراءة نقدية، فرد دونر، مجلة التسامح، العدد٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان.
- الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتي، ط١، ١٩٨٦، دار اقرأ، طرابلس - روما إيطاليا.
- الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، د. زينات بيطار، عالم المعرفة، العدد ١٥٧، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى، د. رشا حمود الصباح، عالم الفكر، العدد الثالث، ١٩٨٤.
- الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليكسي جورافسكي، د. خلف محمد الجراد، دار الفكر ?دمشق، ط٢، ربيع الأول ١٤٢١هـ- حزيران (يونيو) ٢٠٠٠م.
- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، ط٢، ١٤٢٨هـ- ١٩٩٩م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس - ليبيا.
- التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام، جوزيف فان إس، دراسة تحليلية نقدية، د/ السيد محمد الشاهد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.
- الرسول الأعظم ﷺ، بين جهل المستهزئين به وهوان المنتمين له، د/ عبد العزيز المرشدي، ط خاصة بالمؤلف.

■ المتغير الغربى، الشرق، الاستشراق، أدب الصحراء، محمد عبد الحسين الدعمى، ط١، ١٩٨٦، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد.

■ المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن فى منهج المستشرق البريطانى المعاصر مونتغمرى وات، د. عماد الدين خليل، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية، صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

■ دفاع عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليرى، نقله إلى العربية منير البعلبكى، ط٤ آذار مارس، ١٩٧٩، دار العلم للملايين، بيروت.

■ منهج مونتغمرى وات فى دراسة نبوة محمد ﷺ، د. جعفر شيخ إدريس، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

obeikandl.com